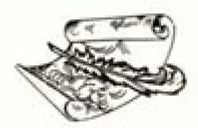
الأعلام من الأدباء والشعراء



أحمد زكي أبو شادي

الشاعر النموذجي

إعداد
الشيخ كامل محمد محمد عويضة

دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الأعلام من الأدباء والشعراء

أحمد زكي أبو شادي

الشاعر النموذجي

إعداد

الشيخ كامل محمد محمد عويضة



دار الكتب العلمية
بيروت - لبنان

الطبعة الأولى
١٤١٤هـ - ١٩٩٤م.

دار الكتب العلمية بيروت - لبنان
ص.ب: ٩٤٢٤/١١ - تلكس: Nasher 41245 Le
هاتف: ٣٦٦١٣٥ - ٣٠٢١٣٣ - ٨٦٨٠٥١ - ٨١٥٥٧٣
فاكس: ٤٧٨١٣٧٣/١٢١٢/٠٠ - ٣٣ ٦٠٢١/٩٦١١/٠٠

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

التراث الفكري والفنيّ لكل أمّة أعزّ ما في ماضيها المجيد التليد، تستمدّ منه القوّة والحيوية والتجديد والتطور، وتهتدي به في دياجير الأحداث وتقيم عليه حاضرها المشرق الباهر، وتباهي به وتكاثر وتفاخر.

ولقد كان لتراثنا العربي الفكري والفني والحضاري تقدير عظيم لا يزال يثير الإعجاب، وينطق العلماء من الشرق والغرب بالثناء عليه، ولا عجب فهو كنوز ثمينة ضخمة متنوعة الجواهر، من الواجب علينا أن ننقّب عنها، وأن نزيل عن نفائسها الغبار، وألاّ نتركها نهباً للضياع...

ومن ثمّ نجد جدوى الحفاوة بهذا التراث العربي القديم، والإجابة عن تساؤل بعض الناس عن جدوى الحفاظ على تراثنا، وما تجشّمنا عناء الكتابة في هذا الموضوع إلاّ ليكون في جملته إجابة عن ذلك السؤال.. إنّ تراثنا مدين في تواصله وتكامل مقوماته إلى طوائف أربع من الناس:

أمّا الطائفة الأولى: فهي التي نرفع أيدينا تقديراً لها، وإعظاماً لشأنها، وثناءً عليها، فهي طائفة العلماء والأدباء الذين أفنوا أعمارهم في التفكير المثمر والإنتاج الغزير، نثراً وشعراً وعلماً وفنّاً، وكانوا يطربون لصرير أقلامهم كما يطرب الموسيقار لألحان الآلة التي يعزف عليها. وهم والحمد لله يعدون بالعشرات بل بالمئات في أغلب الأمصار والعصور.

وأمّا الطائفة الثانية: فهي طائفة أرباب المكتبات العامة، وأصحاب المكتبات الخاصة، من ملوك وأمراء وأثرياء وعلماء، لأنهم صانوا كنوز التراث حتى وصلت إلينا تطالبنا بنشرها.

ولولا الكنوز التي صانوها ما عرفنا شيئاً عن تفاسير الطبري (٣١٠ هـ)، والزمخشري (٥٣٨ هـ)، والقرطبي (٦٧١ هـ)، وابن كثير (٧٧٤ هـ) وغيرهم. وما علمنا شيئاً عمّا جمعه البخاري (٢٥٦ هـ)، ومسلم (٢٦١ هـ)، وابن حنبل (٢٤١ هـ)، ونظراؤهم من علماء الحديث الشريف..

وما وقفنا على شيء من معاجم الخليل بن أحمد (١٧٥ هـ)، وابن دريد (٣٢١ هـ)، وابن منظور (٧١٨ هـ)، وأمثالهم..

وما أحطنا بكثير أو قليل من شعر امرىء القيس (الشاعر الجاهلي)، وجميل بثينة (٨٢ هـ)، وأبي تمام (٢٣١ هـ)، والبحتري (٢٨٤ هـ)، والمتنبي (٣٥٤ هـ) وأشباههم..

وما درينا شيئاً عن نثر ابن المقفع (١٤٢ هـ)، والجاحظ (٢٥٥ هـ)، وأبي حيان (٤١٤ هـ)، والحريري (٥١٥ هـ)، ومَنْ على شاكلتهم..

وما عرفنا طب ابن سينا (٤٢٩ هـ)، وابن النفيس (٦٨٧ هـ)، وأمثالهما.

وما ألممنا بشيء من فلسفة ابن سينا، وابن رشد، وإخوان الصفا وأضرابهم. وهكذا يتجلّى لنا أن تراثنا هو النهر الزاخر الفيّاض الذي يمدنا بالحضارة والنماء والازدهار...

فإذا ما أردنا أن نقرب إلى الأذهان ضخامة ما خلّف أسلافنا من تراث فعلينا أن نتصوّر سعة العالم الإسلامي الممتدّ من شرقي الصين

إلى الأندلس، وأن ندرك أن هذا العالم الفسيح أثري بـآلاف المكتبات العامة والخاصة التي تعمر كل مدينة أو شبه مدينة، لنجد في كـل منها مكتبة أو مكتبات حافلة بالمؤلفـات التي أورثنا إيـاها آبـاؤنا السـابقون يتردد عليها المشغوفون بالقراءة والاطـلاع والنقل، ولنجـد في كثير من القصور مكتبات يحرص أربابها على تزويدها بأنفس الكتب وأنـدرها، ولنرى في كثير من المساجد مكتبات موقوفة مباحة للقراء. .

بلغ عـدد الكتب التي كانت تـزخر بهـا هـذه المكتبـات في الأمثلة القليلة التي أستعرضها في السطور التالية:

بلغ عـدد الكتب التي كانت في بيت الحكمـة الذي أنشـأه الخليفة المأمون (٢١٨ هـ) ببغداد أربع مئة ألف كتاب. . .

وكان في القاهرة دار الحكمة التي أنشأها الخليفـة الفاطمي العـزيز بالله، قالوا إنّها حوت أكثر من مليون ونصف المليـون كتاب وكـان بها أكثر من ثلاثين مخطوطة من كتاب العين «للخليل بن أحمد».

وبلغ من شغف العزيز بالله باقتناء الكتب أنّه اشـترى نسخة واحـدة من كتاب الطبري بمئة ألف دينار.

وكان للعرب في الأندلس سبعون مكتبة عامة، منها مكتبـة قرطبـة التي ضمّت نحو نصف مليون كتاب. .

وكان في مكتبة الخليفة الأموي الحكم الثاني بقرطبـة ست مئة ألف كتاب، وفيها أربعة وأربعون مجلداً للفهارس. . .

وقد جمعت مكتبة منصور بن نوح الساماني أمير بخارى نحو مليون ونصف المليون كتاب.

واشتملت مكتبـة طرابلس الشـام على نحـو ثلاثـة ملايـين كتاب،

وكان لدى أصحاب هذه المكتبة وهم قضاة آل عمّار عدد كبير جداً من النسّاخ . .

وأمّا مكتبات الأفـراد فهي كثيرة، منهـا مكتبة عـلي بن يحيى المنجم التي أباح للقراء أن يتردّدوا عليها وقد ذكر أبـو معشر المنجم أنّه أقـام بها زمناً وقرأ ونقل . .

ومنها مكتبة الصاحب بن عباد التي كانت تحتاج إلى أربعمـائـة بعـير لحملها، وكان فهرسها وحده يشغل عشرة مجلّدات .

ولم تكن هذه المكتبات مقصورة على مـا كتب باللّغـة العربيـة، بل كان في بعضها مئات من الكتب التي ألّفها العلماء بـاللّغتين اليـونانيـة والفارسية . .

ويكفي أن نعلم أنّ الخليفـة المأمـون [٢١٨ هـ ـ ٨٣٣ م] نقل إلى بغداد مئات من الكتب اليونانية التي كانت في القسطنطينية، وأنّه عقد الصلح مع الإمبراطور على أن يبيح له نقل ما يختـاره من كتب العلوم القديمة المخزونة في بلاد الروم، فأجابه إلى ذلك بعـد امتناع، فـأنفذ المأمون جماعة، منهم الحجاج بن مطر، وابن البطريق، وسلّم صاحب بيت الحكمة ويوحنا بن ماسويه وغيرهم، فنقلوا ما اختاروه، وكان ممّا اختاروه كتاب بطليموس في الرياضيات .

ولمّا صالح المأمـون حاكم جـزيرة قـبرص طلب منه أن يبعث إليـه بالكتب اليونانية التي كانت بالجزيرة فبعث بها، وأقام المأمون سهل بن هارون قيّماً عليها .

وقد شارك في جمع الكتب واستنساخهـا بنو شـاكر، وهم محمّـد، وأحمـد، والحسن، وأنّهم أنفـذوا حنـين بن إسحـاق وغـيره إلى بـلاد الـروم، فتعلّم اليـونـانيـة، وجـاءهم بـطوائف من الكتب وغـرائب

المصنّفات في الفلسفة والهندسة والموسيقا، والطب والأرثماطيقي . . وكان ابن لوقا البعلبكي قد حمل معه شيئاً، فنقله، وكان بنو المنجم ينفقون على جماعة من التراجمة، منهم حنين بن إسحاق، وحبيش الحسن، وثابت بن قرة وغيرهم، وبلغت أرزاق هؤلاء التراجمة خمس مئة دينار في كل شهر. . .

ولقد ضمّت المخطوطات التي في المكتبات العامة والخاصة علوماً وفنوناً شتّى، منها اللّغة والنحو والصرف، ومنها التاريخ والتراجم والجغرافية، ومنها الرياضيات والموسيقا، والطب والصيد، والفنون الحربية، والفروسية. . . إلخ.

فإذا ما رجعنا إلى كتاب الفهرست لابن النديم [٣٧٧ هـ - ٤٣٨ هـ] وجدناه يقسم العلوم والفنون في عصره إلى عشرة أقسام، ويقول إنّه سيذكر في كتابه هذه الأصناف كلها، وأسماء مؤلفيها وأخبارهم. . .

وجاء بعده أحمد بن مصطفى الشهير بـ طاش كبرى زاده [المتوفي سنة ٩٦٨ هـ] فألّف كتابه [مفتاح السعادة ومصباح دار السيادة] وجمع فيه ستة عشر وثلاث مئة علم، وهي علوم كتب فيها العرب والمسلمون.

وتلاه مصطفى بن عبد الله المعروف بـ حاجي خليفة [المتوفي سنة ١٠٦٧ هـ] فألّف كتابه [كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون] الذي سجّل فيه أسماء نحو ثمانية عشر ألفاً وخمس مئة كتاب، وذكر أنّه رأى بعينه ستة عشر ألف كتاب منها.

ثمّ جاء التهانوي (١١٥٨ هـ) فألّف كتابه (كشاف اصطلاحات

الفنون) ذكر فيه أكثر من ألفي مصطلح في الثقافة العربية، وعرّف كلاًّ منها بدقّة.

وهكذا يمتدّ الحديث عن المخطوطات التي كانت تعمّر المكتبات العامة والخاصة وقد سلم كثير من المخطوطات من عوادي الزمن وعوامل البلى، وما تزال آلاف منها مفرّقة في مكتبات العالم..

فمثلاً في مكتبة برلين أكثر من عشرة مجلّدات كبار بأسماء الكتب العربية التي هي فيها، وفي مكتبة الفاتيكان أكثر من خمسة آلاف مخطوطة، وفي مكتبة الأسكوريال بمدريد أكثر من مئة ألف مخطوطة، وهكذا الحال من مكتبات موسكو، ولندن، وفيينّا وغيرها...

وأمّا الطائفة الثالثة: فهي طائفة النسّاخ الذين سكبوا نور عيونهم على الأوراق فحفظوا هذه المخطوطات من الضياع والفناء، إذ نهضوا بأعباء النسخ، وبلغوا درجة عالية بتجويد الخطّ وزخرفته ودقّة النقل وأمانته، سواء أكانوا ينسخون المخطوط من الأصل الذي كتبه المؤلّف نفسه، أم من نسخ آخر منقولة عنه، ولم يكن تكرير العمل أو مشقته لتعدل بهم عن تجويد الخطّ ومراعاة أصول الضبط.

وأريد أن أوضح أنّ بعض النسّاخ كانوا من العلماء والأدباء الكبار، وكان آخرون من ذوي الوظائف العالية في الدولة، حتى إنّهم تولّوا القضاء والوزارة، فمثلاً كان في مكتبة المأمون كثير من النسّاخ، وكثير من التراجمة على رأسهم ثابت بن قرّة وحنين بن إسحاق.

أذكر من أولئك النسّاخ على سبيل المثال:

- أبو علي، محمّد بن علي بن الحسين المعروف بابن مقلة (٣١٦ هـ) كان جيد الخطّ، يضرب بخطّه المثل، ولا ينازعه في ذلك منازع، وكان عند سيف الدولة بن حمدان خمسة آلاف ورقة بخطّ أبي

علي هذا، لأنه كان منقطعاً إلى بني حمدان سنوات كثيرة، يقومون بأمره أحسن قيام، وقد تولّى الوزارة للمقتدر سنة ٣١٦ هـ.

ـ أبو عبد الله، الحسن بن علي بن مقلة (٣٣٨ هـ) كان أكتب من أخيه الوزير أبي علي، وقد ولّاه أخوه ديوان الضياع الخاصة، وديوان الضياع المستحدثة وديوان الدّار الصغيرة، وكان أبوهما الملقّب بابن مقلة كاتباً مليح الخطّ.

ـ أبو سعيد، السيرافي النحوي الحسن بن عبد الله المرزباني (٣٦٨ هـ) كان عالماً كبيراً تولّى القضاء ببغداد، وكان زاهداً لم يأخذ على القضاء أجراً، أفتى في مسجد الرصافة خمسين سنة على مذهب أبي حنيفة، فما وجد له خطأً.

كان أبو سعيد يعتمد في نفقاته على أجر النسخ، وكان لا يخرج من بيته إلى مجلس القضاء ولا إلى مجلس التدريس حتى ينسخ عشر ورقات، يأخذ أجرتها عشرة دراهم تقوم بمؤونته ثم يخرج إلى مجلسه.

وله مؤلّفات كثيرة منها:

(١) شرح كتاب سيبويه.

(٢) شرح مقصورة ابن دريد.

(٣) وكتاب أخبار النحويين البصريين.

ـ علي بن محمّد بن عبيد الزبير الأسدي (٣٤٨ هـ) صاحب الخطّ المعروف بالصحة، المشهور باتقان الضبط، وحسن الشكل، كان من أجلّ أصحاب العلّامة ثعلب، ومن جمّاعي الكتب ومحبيها، وله تآليف كثيرة.

ـ أبو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ) كان إماماً في العربية والأدب، وله مؤلّفات كثيرة..

ـ ابن البواب، علي بن هلال (٤١٠ هـ) صاحب الخطّ المتقن والأدب الفائق، وكان ناثراً وشاعراً وقيّماً على خزانة كتب بهاء الدولة بن عضد الدولة بشيراز.

ـ أبو حيان التوحيدي (٤١٤ هـ) كان يحترف الوراقة، ولما اتصل بالصاحب بن عباد قال له الصاحب: الزم دارنا، وانسخ هذا الكتاب، فقال أبو حيان: أنا سامع مطيع.

ثمّ شكا لبعض الناس أنّه جاء من العراق إلى الصاحب ليتخلص من حرفة الشؤم فإنّ الوراقة لم تكن ببغداد كاسدة، فنقل هذا الكلام إلى الصاحب كله أو بعضه أو على غير وجهه فتنكّر لابن حيان.

وحدّث أبو حيان فيما بعد فقال: قَدَّمَ إليَّ نجاح الخادم ـ وكان ناظراً على خزانة كتب الصاحب ـ ثلاثين مجلّدة من رسائل الصاحب، وقال: يقول لك مولانا، انسخ هذا، فإنّه طلب منه بخراسان، فقلت بعد ارتياد (تدبر وإمعان) : هذا طويل...

ـ موهوب بن أحمد بن الحسن الجواليقي (٥٣٩ هـ)، إمام اللّغة والأدب، جميل الخطّ، تنافس الناس في الحصول على خطه، والعجب به.

ـ كمال الدين علي بن حمزة البغدادي (٥٥٦ هـ) صاحب الخطّ السلس غاية السلاسة على طريقة علي بن هلال بن البواب، وبخاصة علم المصاحف فإنّه لم يكتبه أحد مثله فيمن تقدّم أو تأخّر (حسب علمي)، كان من الأعيان الأماثل، ولاّه الخليفة العباسي المسترشد الحجابة، ووكّله وكالة مطلقة، ثمّ ولاّه الخليفة المقتضي لأمر الله، صدرية المخزن.

ـ وأمّا الطائفة الرابعة: فهي طائفة المحققين الذين نهضوا بنشر

هذا التراث بعد ظهور المطابع، فصحّحوا نسخه، وقابلوا بعضها ببعض، وأكملوا ما نقص، وشرحوا ما غمض، وعقبوا بما ينبغي أن يعقبوا به، وفهرسوا الكتب فهارس متعدِّدة، تيسّر البحث والاطلاع، وعرّفوا بالمؤلّفين ومناهجهم، نذكر من هؤلاء:

ـ أحمد تيمور باشا (١٣٤٩ هـ ـ ١٩٣٠ هـ) الذي احتوت مكتبته على أثني عشر ألف كتاب ومخطوط.

ـ وأحمد زكي باشا (١٣٥٣ هـ ـ ١٩٣٤ هـ) فقد جمع أكثر من ستة آلآف مخطوط والذي قام بتحقيق كتاب، «أنساب الخيل» «لابن الكلبي» «والأصنام» لابن الكلبي أيضاً، وقد طبعا بمطبعة بولاق سنة ١٩١٤ م (المطبعة الأميرية الآن)، ولعلّ هذين الكتابين مع كتاب «التاج» للجاحظ الذي حققه أيضاً، من أوائل الكتب التي كتب في صدرها كلمة «بتحقيق» كما أن تلك الكتب قد حظيت بإخراجها على أحدث المناهج العلمية للتحقيق، مع استكمال المكملات الحديثة، من تقديم النص إلى القراء، ومن إلحاق الفهارس التحليلية، ويضاف إلى ذلك أنه أوّل من أشاع إدخال علامات الترقيم الحديثة، في المطبوعات العربية، وألّف في ذلك كتاباً، سمّاه «الترافيم في اللغة العربية». طبع في مطبعة بولاق سنة ١٩١٣ م، وممّا حققه أيضاً، كتاب «نكت الهميان في نكت العميان» لصلاح الدين الصفدي، ونشره عام ١٣٢٩ هـ /١٩١١ م.

ومن الذي قاموا على حراسة العربية، وجاهدوا في سبيلها، وكشفوا عن جوانب فذّة منها هؤلاء الأعلام:

أحمد محمّد شاكر، ومحمود محمّد شاكر، وعبد السلام محمّد هارون، والسيد أحمد صقر، وعبد العزيز الميمني الداجكوتي، وأحمد

راتب النفاخ . . . وغيرهم . . وغيرهم .

ولا ننسى تلك الهيئات الكبيرة والكثيرة في مصر وفي العالمين العربي والإسلامي ، كالجامعة العربية ، والمجلس الأعلى لرعاية الآداب والعلوم والفنون والجامعات والمعاهد العليا ومجامع اللّغة العربية ، والمجلس الأعلى للشؤون الإسلامية . . وغيرهم .

فقد بذلت جهوداً حميدة مشكورة في إحياء التراث وتحقيقه ، ونشر هذا التراث الذي تعنى به كانت له آثاره العظيمة في نهضة أوروبا ، لأنّه هو الأساس الذي قام عليه المذهب العلمي التجريبي . .

وقد سرت الحضارة العربية الإسلامية إلى أوروبا في عدة غدران ، منها إسبانيا وصقلية وإيطاليا ، ومنها الحروب الصليبية ، وذلك أنّه منذ سنة (٥٥٥ هـ / ١١٣٠ م) بدأ مكتب للتراجمة في طليطلة ينقل ـ برعاية رئيس الأساقفة ـ أهمّ كتب العرب إلى اللّغة اللاتينية . .

وحسبنا أن نشير إلى أنّ علم الضوء مدين لكتاب (المناظر) للعلامة ابن الهيثم . كما أنّ أصول الرياضيات مدينة للعلّامة الخوارزمي ، وإليه ينسب علم الجبر . وكما أنّ أصول علوم الهيئة والنجوم والفلك ترجع إلى كتاب (القانون) للمسعودي ، كذلك كان لكتب ابن سينا في الطب أثرها العظيم إلى أواخر القرن الثامن عشر .

ولقد قضت أوروبا ثلاثة قرون ، من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر وهي تترجم كتب العرب إلى اللّغة اللاتينية ، ولم تقتصر على مؤلّفات ابن سينا ، وابن رشد ، والرازي ونظرائهم ، بل إنّها ترجمت عن العربية كتب اليونان التي كان العرب قد ترجموها ، مثل كتب جالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس وبطليموس ،

فزاد عدد ما ترجم من كتب العرب إلى اللّغة اللاتينية على ثلاث مئة كتاب.

ولم يظهر في أوروبا قبل القرن الخامس عشر عالم لم يستنسخ كتب العرب ولم ينتفع بها، ومن الذين استنسخوا كتب العرب وانتفعوا بها روجر بيكون، وألبرت الكبير، وتوماس الأكويني، وغيرهم، قال رينان: إنّ ألبرت الكبير مدين لابن سينا، وإنّ توماس الأكويني مدين لابن رشد.

وقد ظلّت ترجمات الكتب العربية ولا سيّما الكتب العلمية هي المصدر الوحيد تقريباً للتدريس في جامعات أوروبا قرابة ستة قرون.

وبفضل هذه الترجمات عرف الغرب كتب اليونان التي ضاع أكثرها، مثل كتاب جالينوس في الأمراض السارية، وكتاب أرسطو في الحجارة، وكتاب أبولونيوس في المخروطات، كما ذكر الدكتور لوكلير في كتابه (تاريخ الطب العربي)، وقد عقّب جوستاف لوبون على هذا بقوله: «إذا كانت هنالك أمّة نقرّ بأننا مدينون لها بمعرفتنا لعالم الزمن القديم فالعرب هم تلك الأمة، لا رهبان القرون الوسطى الذين كانوا يجهلون حتى اسم اليونان». فعلى العالم أن يعترف للعرب بعد الإسلام بجميل صنعهم في إنقاذ تلك الكنوز الثمينة، قال ليبري: لو لم يظهر العرب على مسرح التاريخ لتأخّرت نهضة أوروبا عدة قرون.

فإذا ما رجعنا إلى ورق الكتابة حدّثنا التاريخ بأنّ العرب عرفوه من الصين في القرن الثاني للهجرة، لكنهم لم يلبثوا أن أنشأوا المصانع لإنتاجه منذ القرن الثالث في مصر والأندلس والمغرب، وبلغت صناعة الورق على أيديهم درجة عالية من الجودة سواء أكان أبيض

ناصعاً أو ملوناً وعن العرب نقلت أوروبا هذه الصناعة في القرنَ السادس للهجرة، إذ كانت حضارتهم تعمر الأندلس وإيطاليا وجنوبي فرنسا.

وكتبه،

كامل محمّد عويضة

مصر. المنصورة. عزبة الشمال

ش جامع نصر الإسلام

أحمد زكي أبو شادي

١٨٩٢ - ١٩٥٥ م

(١)

١ - حياته:

وُلِد أحمد زكي أبو شادي في ٩ من فبراير سنة ١٨٩٢ بحي عابدين في القاهرة لأب كان محامياً وخطيباً مفوهاً، اشتهر بمواقفه الوطنية، هو محمّد أبو شادي، ولأم كانت تنظم الشعر وتنشده هي أمينة أخت الشاعر مصطفى نجيب. فالجو الذي نشأ فيه كان جواً أدبياً. وقد اختلف على شاكلة لداته إلى المدارس الإبتدائية فالثانوية، وتفتّحت فيه مبكرةً مواهبه الأدبية والشعرية، إذ لا نصل معه إلى سنّ السادسة عشرة حتى نجده ينشر طائفة من شعره ونثره بعنوان: «قطرة من يراع في الأدب والاجتماع» ولا يلبث أن يلحقها في العام التالي بقطرة ثانية، ويتبعها بقطرتين أخريين من النثر والنظم.

وتتضح في هذه الكتب جميعاً ثقافته المنوعة بالآداب العربية والغربية وإحساسه بمشاكل قومه السياسية والاجتماعية ومشاكل الشعر العربي في المادة والشكل والمضمون. ونراه معجباً بخليل مطران وبآراء «برادلي» أستاذ الشعر حينذاك في جامعة أوكسفورد، ويترجم بعض أشعار غربية، ويعرض لبعض الرسامين، وكأنه يضع تحت أيدينا المؤثرات التي ستظل تؤثر في روحه وفي شاعريته.

ومن أبريل من سنة ١٩١٢ أرسله أبوه إلى إنجلترا ليدرس الطب، وأتمّ هذه الدراسة في ديسمبر من سنة ١٩١٥ وظفر بجائزة «وب» في

علم «البكتريولوجيا» أو علم الجراثيم. وظلَّ هناك يشتغل بهذا العلم نحو سبع سنوات، وفي أثناء ذلك تيقظ اهتمامه بتربية النحل، وأسَّس جمعية له، وأسَّس بجانب الجمعية مجلة عالم النحل «Bee - World».

وعني بالتصوير كما عني بالشعر، وكأنه كان هناك خلية نحل دوياً ونشاطاً. وقد أخذ يعمِّق معرفته بالأدب الإنجليزي وغيره من الآداب الغربية، وخاصة النزعة الرومانسية التي كان قد أعجب بظلالها عند خليل مطران، فعكف على شللي وكيتس وأضرابهما من شعراء الوجدان الفردي. وأتقن الإنجليزية بحيث أخذ ينظم بها، غير أنه لم ينس وطنه وقومه، فكان يرسل بمقالاته وأشعاره إلى الصحف المصرية. وأنشأ جمعية آداب اللّغة العربيّة، وأخذ يجمع أبناء وطنه حوله في النادي المصري بلندن، ويتحدث معهم في شؤون بلاده، وتنبَّهت له الشرطة هناك، فضيَّقت عليه تضييقاً جعله يؤثر العودة إلى وطنه ومعه زوجته الإنجليزية في ديسمبر سنة ١٩٢٢.

عاد أبو شادي إلى مصر بنشاطه الجمّ، فلم يمض عليه شهران حتى أنشأ «نادي النحل المصري» الذي حيَّاه شوقي بقصيدته المعروفة «مملكة النحل». وفي أبريل من سنة ١٩٢٣ تولى إدارة قسم «البكتريولوجيا» في معهد الصحة بالقاهرة. ودار العام فنقل إلى السويس ثم إلى بورسعيد فالإسكندرية ولم يمكث طويلاً خارج القاهرة فقد عاد إليها في سنة ١٩٢٨. وكان في كل مكان يحل فيه يؤسس الجمعيات كجمعية رابطة مملكة النحل و«الاتحاد المصري لتربية الدجاج» و«جمعية الصناعات الزراعية» و«الجمعية البكتريولوجية المصرية». وبجانب هذه الجمعيات كان ينشىء المجلات التي تخدم أهدافها مثل «مملكة النحل» و«الدجاج» و«الصناعات الزراعية».

وكان في أوقات فراغه يقبل على نظم الشعر في سرعة شديدة،

فكثر إنتاجه الشعري كثرة مفرطة، وما نصل إلى سنة ١٩٣٢ حتى نراه يؤلِّف جماعة أبولو التي تحدَّثنا عنها في غير هذا الموضع، والتي ظلَّت قائمة إلى سنة ١٩٣٥ وكان لها أثر كبير في نهضتنا الشعرية حينئذٍ، إذ أسِّس باسمها مجلّة فتحت صدرها للشباب وغذّتهم بآداب الغرب وآراء نقّاده من الشعر والشعراء. وكانت مصر في هذه الأثناء تجتاز محنتها بصدقي، إذ كان يحكمها بالحديد والنار تسنده حراب الإنجليز الغاشمين، فانطوى شعراؤنا على أنفسهم متغنين بشعر رومانسي حزين. ويظهر أن كوارث مالية حفَّت بأبي شادي، فرأيناه في بعض أشعاره يفزع إلى صدقي الجائر ومليكه الطاغية. وهي سقطة يشفع فيها لأبي شادي شعره الوطني الكثير الذي ناصر فيه أحرارنا وزعماءنا الشعبيين منذ مصطفى كامل.

ونمضي مع أبي شادي إلى سنة ١٩٣٥ فتنفضّ جمعية أبولو وتحتجب مجلتها، وقد أخرج من بعدها مجلتي «الإمام» و«أدبي» ولم يكتب النجاح لهما. ويظل في القاهرة إلى أن تنشأ جامعة الإسكندرية، فيختار أستاذاً «للبكتريولوجيا» فيها. وتتوفّى زوجته، وكأنَّه ضاق ذرعاً بالحياة بعدها في موطنه فيرحل في سنة ١٩٤٦ إلى أمريكا. وهناك عاود نشاطه، فاشترك في الأندية الأدبية وحرَّر جريدة «الهدى» العربية، وعمل في «صوت أمريكا» وأسَّس «جماعة منيرفا» على غرار جماعة أبولو، ونشر ديوانه، «من السماء». وما وافاه القدر سنة ١٩٥٥ حتى كان قد أعد للطبع أربعة دواوين، هي: «من أناشيد الحياة» و«النيروز الحر» و«الإنسان الجديد» و«إيزيس».

وحياة أبي شادي على هذا النحو مكتظة بالنشاط، فقد أسَّس كما رأينا جمعيات ومجلات مختلفة، وكتب مقالات أدبية وعلمية كثيرة، بالإضافة إلى ما كان يذيعه من محاضرات في أجوائنا الأدبية وأحاديث

في «صوت أمريكا». وقد نقل إلى العربية من الإنجليزية غير قصيدة ومقطوعة. كما نقل رباعيات عمر الخيام وحافظ الشيرازي، ومن مصنفاته العلمية: «تربية النحل» و«أوليات النحالة» و«الطبيب والمعمل» و«إنهاض تربية النحل في مصر» و«مملكة الدجاج» و«مملكة العذارى في النحل وتربيته». ونُشر له بعد وفاته ثلاثة كتب، هي: «دراسات إسلامية» و«دراسات أدبية» و«شعراء العرب المعاصرون».

٢ ـ شعره:

لعل عصرنا لم يعرف شاعراً كثُر إنتاجه الشعري على نحو ما عرف ذلك عند أبي شادي، إذ كان الشعر يتدفّق على لسانه منذ نشأته تدفُّقاً. وأتاحت له ثقافته الواسعة بالآداب الغربية أن يطلع على أنواع الشعر هناك من قصصية وغنائية وتمثيلية وعلى مذاهبه من واقعية ورومانسية ورمزية. ومن ثم مضى يتأثر في شعره بكل هذه الأنواع والمذاهب، وإن كنا نلاحظ غلبة المذهب الرومانسي عليه، وقد اجتمعت ظروف كثيرة دفعته إلى المعيشة الفنية فيه دفعاً، إذ اتصل مبكراً بأكبر من تأثروا من شعرائنا بهذا المذهب في مطالع القرن، ونقصد خليل مطران الذي يسميه في غير قصيدة أستاذه، وهام في حداثته بفتاة تدعى زينب، غير أنها هجرته، فانسكب الألم في قلبه ومضى يتغنّاه إلى آخر حياته. وكان مما ضاعفه في نفسه البؤس الجاثم على وطنه بسبب تسلُّط الإنجليز وظلمهم وطغيانهم، وأيضاً ضاعفته حملات شعواء على شعره، جاءته من عدم تأنّيه في صنعه. فعاش يجتر الألم والحزن والحب المحروم باحثاً عن عزاء له في الطبيعة والأساطير القديمة.

ومما لا شك فيه أن أبا شادي بثقافته الواسعة ومواهبه الشعرية كان

معدّاً لأن يحتلّ منزلة رفيعة في شعرنا المعاصر، غير أنه كـان متعجّلاً، لا يستقر عند موقف في الحياة ولا في الشعر، بل ينتقـل من موقف إلى مـوقف في سرعة شـديدة، وهي سرعـة أصابت معـانيه بـالضحـولـة وحـالت بينه وبـين الافتنان في الفكـر والخيـال. ومن ثم كـانت كـثرة أشعاره مغسولة من كل وميض للذهن إلا ما جاء نادراً وفي الحين بعد الحين. ولم يأته ذلك من سرعته في نظم الشعر وحدها، بـل أتاه أيضاً من أنه وزّع نفسه في اتجاهات الشعر المختلفة على شاكلة توزيعه لها في حياته العملية، بحيث كانت له شخصيـات متعددة فهـو طبيب وهو بكتريولوجي، وهو يهتم بتربية الدجاج وبمملكة النحـل، كما يهتم بتأسيس الجمعيات المختلفة وإخراج المجـلات العلمية والأدبيـة. وهو على هذا القياس من شعره إذ حاول أن يجمع فيه بين الشعر القصصي والشعر الدرامي والشعر الرومـانسي الحزين والشعـر الصوفي والشعـر الوعظي والشعر الفلسفي والشعر الواقعي والشعر الـرمزي، والشعـر المـرسل، والشعـر الحر. ولم يكتف بفنّ الشعـر إذ ضمّ له عنـاية بفنّ التصوير والموسيقى، فتعدّدت اتجاهاته، وكثر ما يحمله من أدوات، إذ كان يحمل في يـد مبضعاً ومجهـراً ومجالات علميـة وفي يد قلماً وريشـة وآلـة موسيقيـة ومجلات أدبيـة وربة الشعـر توحي إليـه بـين ضجيج المعامل وطنين النحل ودويّه.

وأول ديـوان أخرجـه «أنداء الفجـر» إذ نشره في الثامنـة عشرة من عمـره، وتتضح فيـه نزعتـه الرومـانسية المبكـرة، إذ نراه يفسـح فيـه للحب والطبيعة وأصدائها في نفسه، غير متنـاسٍ لمشاكلنـا السياسيـة والاجتماعية، ولا نمضي في قـراءته حتى نحسّ ضعـف صيـاغته ونـزارة معانيه وأخيلته، لسبب بسـيط، هو أنه لا يزال ناشئاً، ولم يتمرّس بعد بصناعة الشعر تمرُّساً كافياً.

ويرحل إلى إنجلترا، ويعود، وقد نظم كثيراً، وما تلبث دواوينه ومنظوماته أن تتعاقب كالمطر، وكان أول ما أظهر منها ديوانه «زينب» الذي نشره في سنة ١٩٢٤ وقد اختار له اسم صاحبته القديمة، فذكراها لا تفارقه. والحب والطبيعة هما محور هذا الديوان، وتلقانا فيه قوالب الموشح والدوبيت وقصيدة غزل في زينب (ص ١٦) حاول أن يجدّد بها في القوالب الشعرية ومن خير قصائده فيه قصيدته «الحلم الصادق» التي يفتتحها بقوله:

هات لي العُود وغنّي واسمعي شجوي وأني
تطرحي الأحزان عني فأوْدِّي صلواتي

وفي السنة التالية نشر ديوانين بنفس النغم هما «أنين ورنين» و«شعر الوجدان» ونجد فيهما مشاعر وطنية صادقة. ونشر في نفس السنة ديوانه «مصريات» صوَّر فيه أمانيه الوطنية محرِّكاً هِمَم المصريين للخلاص من الإنجليز الغاشمين. ولم يلبث في سنة ١٩٢٦ أن أخرج ديوانه «وطن الفراعنة» وفيه يتغنَّى بأمجاد مصر وآثارها القديمة. ونراه في نفس السنة يخرج ديوانه الضخم «الشفق الباكي» وهو يقع في أكثر من ألف صفحة، تسبقها مقدّمات وتليها دراسات في شعره. ونراه في هذا الديوان ينظم بعض الأقاصيص ويترجم عن الإنجليزية بعض الأشعار، ويذكر بين يدي بعض منظوماته أنها من الشعر المرسل، وقد تكون من الشعر الحر. وقد علق في طائفة من أشعاره على كثير من الأخبار العالمية وشكا من أعباء مهنته التي تعوق ميله إلى الشعر، غير أنه عاد فاعترف بأن ملكة الملاحظة التي تعوّد عليها في الطب أفادته في شعره، ومن ثم خصَّ مجهره (الميكروسكوب) بقصيدة أطراه فيها، جعل عنوانها «رفيقي الكشاف». وفي رأينا أن هذه الملكة جارت عليه أكثر مما ينبغي، إذ جعلته يحول كل ملاحظاته إلى شعر.

ونراه يحتفظ في هذا الديوان بطائفة من قصائده التي نظمها في إنجلترا كقصيدته في سقوط الجليد وحديث البحر وصحبة الألام. وعلى شاكلة دواوينه السابقة تبرز في «الشفق الباكي» أمانيه الوطنية ومشاعره القومية سواء في بعث الذكرى لدنشواي ويوم التل الكبير أو في تحيته لعبد الكريم بطل الريف المغربي وتألمه لكارثة دمشق حين قذفها الفرنسيون بالمدافع سنة ١٩٢٥ وقد رد على «كبلنج» الشاعر الإنجليزي الاستعماري في قولته: «الشرق شرق والغرب غرب ولن يلتقيا» رداً مفعماً. ودائماً نجده يرتبط بأحداثنا السياسية وكثير من المشاهد اليومية. ويحدثنا عن أعياد أسرته التذكارية. ولما توفي سعد زغلول خصّه بكتيّب ضمّنه رثاءه له، حتى إذا كانت ذكرى الأربعين نظم فيه مرثية أخرى بعنوان «التراث الخالد».

ولا يكاد يفرغ من نشر ديوانه الكبير «الشفق الباكي» حتى يتخذ العدة لنشر ديوانه «وحي العام» معلناً أنه سيصدر كل عام ديواناً بهذا العنوان على طريقة الحوليات. ونمضي معه إلى سنة ١٩٣١ فنراه يخرج ديوانه «أشعة وظلال» نازعاً عن نفس القوس التي رأيناها في الدواوين السابقة، وهو فيه كثيراً ما يأتي بإحدى الصور لبعض الرسامين العالميين، ويحلّل خواطره إزاء موضوعها، كما أنه كثيراً ما يترجم مقطوعات ومنظومات عن بعض الشعراء الغربيين، وقد يذكر الأصل الذي نقله، ويفجؤنا أحياناً بوضعه عنوانين لبعض قصائده: عنواناً عربياً وآخر إنجليزياً. ولا نصل إلى سنة ١٩٣٣ حتى نراه يخرج ديوانيه: «الشعلة» و«أطياف الربيع» ويقدم الحب والطبيعة والأساطير المصرية واليونانية أخصب البواعث في الديوانين جميعاً، ولا ينسى آماله الوطنية، فقد كان يحس مشاعر شعبه، ومن قصائده الجيدة في الديوان الأول «الناس» وفيها يصوّر صراعهم وعدوانهم بعضهم على

بعض. وتلقانا في ديوانه الثاني قصيدته «الفنان» وفيها يصوِّر حبه الظامىء أبداً إلى لقاء الحبيبة، على شاكلة قوله:

أمانا أيها الحب سلاماً أيها الأسي
أتيت إليك مشتفياً فراراً من أذى الناس
أطلي يا حياة الرو ح في عيني تحييني
شرابي منك أضواء وقوتي أن تناجيني

ويخرج في سنة ١٩٣٤ ديوانه «الينبوع» بنفس المادة والمضمون. ونراه فيه يشكو شكوى مرّة من نقّاده في قصيدته «المهزلة» وكثيراً ما تلقانا هذه الشكوى عنده. وفي سنة ١٩٣٥ نشر ديوانه «فوق العباب» بنفس الروح ونفس الانطلاق في موضوعات الحب والطبيعة والأساطير القديمة ومشاهد الحياة. ويتكاثر غبار النقد من حوله، فيقف إنتاجه الشعري ولكن إلى حين، فقد أخرج في عام ١٩٤٣ ديوانه «عودة الراعي» ونراه لا يزال يفكِّر في الشعر المرسل فينظم منه بعض قصائده، كما نراه يحلم بمثالية إنسانية دقيقة في «حلم الغد». وهو في هذا الديوان كدواوينه السالفة يحاول دائماً إيقاظ الوعي في الشعب المصري وإثارته للحصول على حقوقه المقدسة والثورة على الحكّام الفاسدين، على نحو ما نجد في قصيدته «حداد القطن» وفيها يقول:

يا شعب قم وانشد حقو قك فالخنوع هو المهات
تشكو الغريب وعلة الـ شكوى الزعامات الموات

ويرحل إلى أمريكا، وينشر فيها ديوانه «من السماء» سنة ١٩٤٩ وفيه كثير من صور البحر والطبيعة والحياة هناك. وقد توفي كما أسلفنا وهو على أهبة إصدار أربعة دواوين.

ودفعت أبا شادي معرفته الدقيقة بالآداب الغربية وما رآه عند أستاذه مطران من أشعار قصصية إلى أن يقوم بمحاولات في هذا الاتجاه، وكانت أولى محاولاته «نكبة نافارين» التي نشرها في سنة ١٩٢٤ وفيها خلّد ذكرى القوات البحرية المصرية التي ذادت عن الخلافة العثمانية والترك في موقعة نافارين لعهد محمد علي. وقد صوّر فيها الأسطول المصري منذ خروجه من قواعده إلى أن حاقت به الهزيمة في صور زاخرة بالحياة، وختمها بندب من سيزوستريس للقتلى وبكائهم. وفي سنة ١٩٢٥ نظم قصة جديدة بعنوان «مفخرة رشيد» خلّد فيها ذكرى القوات المصرية التي ردّت عدوان الإنجليز الأثم عن هذه المدينة في موقعة إبريل سنة ١٨٠٧. وأتبع ذلك بقصّتين اجتماعيتين هما «عبده بك» و«مها» وهو فيهما أقل توفيقاً من الناحية القصصية والشعرية.

وعلى نحو ما عالج القصة في شعره عالج المغناة: «الأوبرا»، فقد مضى منذ سنة ١٩٢٧ يؤلف فيها آثاراً مختلفة، ومعروف أن المغناة لا تعتمد على الشعر والتمثيل فحسب، بل تعتمد أيضاً على موسيقى مركّبة. وقد يكون اعتمادها على هذه الموسيقى وألحانها أكثر من اعتمادها على التمثيل والشعر. ولعل ذلك هو السبب في أن مغنياته أو «أوبراته» لم تلق النجاح المنشود، وكأنه أحس بما كان ينتظرها، فكتب في ذيل مغناته الأولى «إحسان» بحثاً مسهباً في تعريف المغناة: «الأوبرا» وتاريخها ومدارسها الإيطالية والفرنسية والألمانية، مبيّناً أن المدرسة الأولى وحدها هي التي تعول فيها على الموسيقى والغناء، بينما تعترف المدرسة الثانية بالنص الأدبي، وتبالغ الثالثة في الاعتماد عليه وتجعله الأساس. وقد مضى مهتدياً بالمدرسة الأخيرة في صنع مغنياته، محاولاً أن تكون لها قيمة درامية مستقلة.

ومما لا شك فيه أنه وفّق في الوعاء الذي اختاره لمغنياته، إذ اتخذ موضوعها من التاريخ تارة ومن الأسطورة تارة ثانية، غير أنه لم يستكمل لها القيمة الدرامية التي كان ينشدها، سواء في بنائها وعناصرها الفنية أو في رسم شخوصها وتوليد حوارها وتتابعه بينهم. وهو أيضاً لم يستكمل لها القيمة الغنائية الخالصة، إذ يقصر شعره عن النهوض بأعباء الغناء والتلحين وما يستلزمان من أناشيد بسيطة عذبة.

وأول ما أخرجه في هذا الاتجاه «مغناة إحسان» كما قدمنا، وحوادثها تجري في أثناء الحرب المصرية الحبشية التي نشبت في سنة ١٨٧٦ وكانت إحسان زوجة لابن عم لها ضابط اشترك في تلك الحرب وأظهر بسالة نادرة، غير أنه وقع في الأسر، فأشاع بعض رفاقه أنه مات. وعاد بعد خمس سنوات ليجد امرأته وقرّة عينه قد تزوّجت ومرضت، وهي في النزع الأخير، وتراه فيغشى عليها من الدهشة وتموت. وأتبع هذه المغناة بمغناته «أردشير وحياة النفوس» اقتبسها من «ألف ليلة وليلة» وهي من أربعة فصول. وينظم مغناة «الآلهة» وهي مغناة رمزية يجري فيها حوار بين شاعر فيلسوف وآلهتي الجمال والحب وآلهتي الشهوة والقوة، وهي في حقيقتها حوار خيالي وليست عملاً دراميا. ويعود إلى التاريخ فيؤلف مغناة «الزباء» ملكة تدمر.

وعلى هذا النحو كان أبو شادي غزير الإنتاج في شعرنا المعاصر غزارة مفرطة، ومن المحقق أنه لم تكن تنقصه موهبة الشعر وأنه كان يستطيع أن ينظم قوافي أي موضوع يعنّ له أو يفكّر فيه، غير أنه استرسل في ذلك استرسالاً حال في أكثر الأحيان بينه وبين نضوج تجاربه الشعرية، كما حال بين كثير من شعره وبين إرضاء الفن فيه والنهوض بحقه.

٣ ـ مؤهّلات أبو شادي

كان العلّامة المرحوم الدكتور يعقوب صروف يضرب المثل بالدكتور أبو شادي على توارث العبقرية الأدبية غير منقوصة عن ناحيتي الأب والأم، ولا غرو فالدكتور أبو شادي سليل أسرتين أديبتين تجلّت فيهما الشاعرية أقوى التجلّي.

وقد أشار إلى هذه الحقيقة الأديب الألمعي الأستاذ حسن الجداوي إشارة واضحة في تعليقاته القيِّمة على قصيدة (نكبة نافارين) وهي أول ما أخرجه الجداوي من آثار أبو شادي، وكان ذلك في سنة ١٩٢٤ في مدينة السويس حيث توثّقت بيننا نحن الثلاثة صداقة أخوية وأدبية متينة لم تشبها أدنى شائبة في مدى عشر سنوات كاملة.

ومن خبر أبو شادي كما خبرته حار أول الأمر في تناقض هذه الشخصية الموهوبة، إلى أن يختبره الخبرة الكافية فيعرف نواحي نفسيته المتعدّدة، وكيف أنه يلبس لكل حالة لبوسها بشخصيته القوية المرنة.

إن الدكتور أبو شادي أديب وشاعر بسليقته، ولم تؤثر فيه تربيته العلمية الطبية أي تأثير منتقص لهذه الشاعرية، بل على العكس أرى أنها زادتها قوة واشتعالاً.

يعمل أبو شادي في المعمل البكتريولوجي عملاً مضنياً منهكاً، فإذا زرته مفاجأة وجدته يدأب في عمله بلذة متناهية كأنما هو مشغول بقرض ملحمة شعرية، وما ذلك إلا لتذوقه جميع أعماله بروح الفنان الأصيل، حتى إذا ما انتقل إلى المطبعة رأيته يراجع مسودّات مجلاته ويشرف على الطباعة بعناية واهتمام وشغف ترجع أيضاً إلى روحه الفنية التي تحب الاتقان وتتطلع دائماً إلى الكمال، وقس على ذلك إكبابه على المطالعة أو على البحث والتأليف، حتى إذا ما جالسته في

بيته أو في أحد الأندية أو لمحته في القطار أو الترام وجدته حالماً سابحاً في خيالات الشعر أو متأملاً مستوعباً لأطياف الحياة التي تمر أمامه في الشوارع، أو تلك التي تتجلّى في الأزهار والأشجار ومختلف الأشعة والظلال، ولك أن تقسم حينئذٍ أن أبا شادي مشغول بالتجارب الشعرية عن كل ما حوله حتى ولو شغلته بحديثك!.

فهنا شاعرية عجيبة متأجّجة، أول مؤهلاتها الوراثة ثم الثقافة، وتشمل الوراثة تكوينه العصبي الحي الذي لا يهدأ أو الذي تؤثر فيه أطياف الحياة تأثيراً قوياً متواصلاً كما تؤثر فيه أخيلته وتصوّفه وأحلامه وتجاريبه المتعدّدة ومطالعاته الكثيرة وسياحاته واحتكاكه بالناس، في حين لا يتفاعل مع كل هذه العوامل في الغالب إلا القليلون من الشعراء. زد على هذا نزعة أبي شادي إلى الموسيقى والتصوير منذ حداثته، فتجد في شعره الغنائي الرنين الموسيقي الرائع إلى جانب شعره الصوفي المتقشف، وتجد له شعر التصوير الوافي التحليل كأنه لوحة مصوِّر إلى جانب الشعر الوصفي الذي يتغلغل في صميم الحياة ويمتزج بروح الطبيعة.

ومن مؤهلات أبي شادي شغفه باللّغة واطلاعه الوافي عليها وعنايته بمقارنة اللّغات وغيرته على الأدب العربي، وكل هذا ساعده على تطويع اللّغة لأغراضه الأدبيّة فلم تقف حائلاً دون التعبير عن أدق عواطفه [حتى قال فيه الأستاذ خليل مطران إنه «أحدث في اللّغة العربية شعراً سلساً بألفاظه، قريب المأخذ بسهولة، سليماً بلغته جهد ما تسعه المعاني المصرية، متقيداً بأوزانه ولكن تقيّد الموشك أن يعمد إلى الافتكاك من كل ثقيل الكلفة فيها». (يراجع تصدير ديوان «أطياف الربيع»)].

ومن مؤهلاته البارزة أيضاً إيمانه بشعوره وعاطفته فلا يقبل أي

اعتراض على نجوى نفسه، ومن ذلك الشاعر الحر الذي لا يقبل من أي ناقد أن يحدّد له مواضيع شعره وما يجوز له أن يعبر فيه عن خواطره الملحّة وما لا يجوز؟ إن هذا التصنع لا يعرفه أبو شادي، فهو خير من يطلق نفسه على سجيتها ليعطينا شعراً حياً عليه طابع شخصيته الحرّة الحسّاسة.

وأعد من مؤهلاته كشاعر عظيم إنسانيته العميقة وتسامحه الجميل الذي أعطانا شعراً إنسانياً عالياً لا أثر للتصنّع فيه، ولولا أنه يعيش في ذاته كإنسان حساس كريم النفس لما كان من الميسور أن تظفر منه بكل هذا الشعر الإنساني العالي الذي يفيض رحمة وصفاء وحناناً.

ولا يسع المقام استقصاء مناحي مؤهلاته المتعدّدة، فهذا ما لا تسمح به محاضرة كهذه، والأفضل تركه إلى تأليف خاص عنه يضعه أحد أقرانه النابهين من الشعراء أو من الأدباء الممتازين. وصحيح أنه ليس من الضروري أن ينقد الشاعر ويؤرّخه شاعر معبر مثله. ولكن من المحتّم أن يكون على الأقل شاعراً حساساً في ذاته تتجاوب نفسه ونفسية الشاعر المنقود، وأما ترك النقد والتأريخ الشعري لأي كاتب أو ناقد كل شهرته مبنيّة على تناول القلم والنشر في الصحف فخطأ كبير.

٤ ـ شخصية أبو شادي

تناول شخصية أبي شادي بالتحليل غير واحد من أدبائنا البارزين أذكر منهم الأساتذة خليل مطران وأحمد محرم وحسن الجداوي ومحمد صادق عنبر وعلي محمد الجداوي وسلامة موسى وكامل كيلاني ومحمد صبحي ومحمد أمين حسونة وأحمد الشايب وأحمد الصاوي محمد وجميلة العلايلي وعبد القادر عاشور والدكتور إبراهيم ناجي وعبد

الفتاح فرحات وحسن كامل الصرفي وإبراهيم المصري وعبد الحميد فؤاد وغيرهم، وجميعهم مجمعون على أن شخصية أبي شادي تتسامى بصوفية نادرة متشعبة في تركيبها، فنحن أمام رجل جبّار الذهن يحب الحياة غاية الحب ويتذوّق الاستمتاع بها نهاية التذوُّق، يتغنّى بجمالها وبأوصافها البديعة، ويحلّل روائعها في شعره، ويندمج في كل شائق حبيب، بل تخلق نفسه من جميع مرائيها صوراً للجمال والسعادة، ومع ذلك فنفسه الفنية أزهد ما تكون في هذه الدنيا من مناسبات. . . ونفسيته مكشوفة في شعره الذي هو ترجمات حياته، لأنه لم يتعمّد أن يذيع منه ما يرضي الجمهور بل نشره كما أرضى عواطفه وحدها، فكان مرآة صادقة لجميع أحاسيسه في مختلف أدوار حياته وفي ظروفه المتباينة، لا صورة مصطنعة لاستهواء القراء وإرضائهم. فأبي شادي يقبل على الحياة وإن نفر من بعض أهلها، وإن سخط على بيئته، ولكنه يعود فيشفق عليهم ويحب لهم الخير ويعمل على إسعادهم. وهو يحب دنياه ومتعتها وإن صغرت في عينه كلما تجلّت أمامه مثله العليا، وبينما يسحره جمال راقصة فنانة نرى قوته الروحية الصوفية تتحوّل سريعاً إلى الزهد فيغبط راهب الدير على تقشّفه وتحرُّره النسبي. . .

وإذا لخصنا شخصية أبي شادي في كلمة فعلينا أن نقول إنها شخصية العامل المحسن والفنان المبدع. فقد حمل أبو شادي على كتفيه أعباء تنوء بها هيئات متعددة لخير العلم والأدب والفن، ولخير وطنه البائس، ولخير العالم العربي، ولخير الإنسانية على قدر ما تستطيع مساهمته في خدمتها بالفكر والروح والعمل وهذه صورة مجمع على صحتها، وحسبك من رجل مثله أنه تحمّل ولا يزال يتحمّل مسؤولية تنظيم الجمعيات العلمية والأدبية التي كوّنها والمجلات التي أخرجها ولا يزال حريصاً على حياتها ونفعها، وإن لاقى في سبيل

ذلك من البيئة الجاحدة ومن حسّاده الكثيرين ما لاقى كل مصلح متجرِّد من إساءة ومقاومة عنيفة! وأنت ترى أن جميع أعمال أبي شادي ليست مما سبق إليه، لأن روحه بطبيعتها مبتكرة مبدعة تصدف عن التبذُّل والتقليد، فهو يسدُّ بمجهوداته فراغاً عظيماً من ثقافتنا المتنوعة. وإن رجلاً متصوِّفاً مثله، يؤمن كل الإيمان برسالته وعمله، ويتفانى في عقيدته، ليس بغريب منه أن يتشبَّث كل التشبُّث بما يعتقده صواباً، فيأتي التسامح في مبادئه الأصلية، ويعمل بتؤدة وثبات واطراد متواصل لنشر مذهبه وآرائه، سواء أتناولت جعل مصر محطة عالمية للنحالة، أم التجديد في التشخيص البكتريولوجي، أم النهوض بالدجانة المصرية أم التسامي بالشعر العربي، أم [ربط استقلال مصر الاقتصادي بالصناعات الزراعية]، أم غير ذلك من نواحي نشاطه الذهني المتعدِّدة، فجميع هذه أمامه بمثابة سمفونية كبرى لها وحدتها وإن عدَّها الغير متعدِّدة.. ونشاطه المتنوِّع وحبه للتنوُّع منعكس في شعره الذي يمثل نماذج شتى من الحياة ومن الأساليب أيضاً، ولكن شخصيته تظل من ورائها جميعاً.

والخلاصة أن شخصية أبو شادي تشمل مزيجاً من عالم مجسّم، وأديب مجسّم، وشاعر مجسّم، ومصلح مجسّم وإنسان مجسّم. هو يعيش في كل هؤلاء في آنٍ واحدٍ، وتنعكس مرائي كل هؤلاء في شعره فترى فيه الفيلسوف الممعن، والموسيقار المستوحي، والمصور المبدع، والوطني القائد، والعربي الغيور، والإنسان المتسامح، فشعره أصدق مرآة لشخصيته المتعدِّدة الجوانب، ومن حسن الحظ أنه ليس ممن ينكرون أبوة شعرهم إرضاء للبيئة أو لاعتبارات عرضية، فجاء هذا الشعر صورة بارزة صادقة لشاعرية أبي شادي ولسيرة أبي شادي، وإن كان قد فقد غير قليل من شعره أثناء اغترابه عن مصر.

٥ ـ شعره الإنساني

لا نزاع في أن أحب الشعر إلى أبي شادي هو شعره الإنساني الصافي الذي يمثل نفسه الرحيبة التي نلمسها في روايته (أخناتون) وقد أهداها إلى أستاذه خليل مطران وإلى الفليسوف الاجتماعي الإنساني ولز، وهي من أحسن أوبراته في مغزاها ومعانيها وموضوعها وموسيقاها.

ولا تقرأ ديواناً من دواوينه ـ حتى شعره منذ نعومة أظفاره ـ إلا وتجده مشبعاً بأصفى الشعر الإنساني الذي يحلم بوحدة البشرية كأسرة واحدة تجمعها الثقافة والتراحم واشتباك الصوالح وآمال الإنسانية المتسامية. وليس من ناقد جديد بهذا الاسم إلا واسترعته هذه الناحية الفريدة في شعر أبي شادي، وأخصّ بالذكر نقد الأستاذ العلامة أحمد الشايب. يقول أبو شادي في قصيدته «الإنسانية» (ص ٣٩٥ من ديوان «الشفق الباكي») وهي من أروع شعره العالمي:

ما زلت سابحة بتيّار الدم	فتنبّهي من قبل أن تتهدّمي!
وتعلّمي سرّ النجاة وحقّقي	معنى الحياة بحكمة المتعلّم
إن الحياة تضافر وتعاون	سيان بين غنيها والمعدم
حتى الجماد فقد يؤازر بعضه	بعضاً، فكيف بمن لروح ينتمي؟
روح الوجود هو الجمال، فما له	قد شاه بين أذى وخبث مضرم
واذبل بين تكالب وتناحر	وهو الذي لولاه لم تتنسّمي
مرّت ملايين السنين فهل كفت	لتفهم الدنيا ونقض توهم
ما لامك اللوّام عند طفولة	والآن ما يكفيك لوم اللوم
ما بين شمس بدّدت إشعاعها	لتضيء نهجك بعد عيش مظلم
وعوالم من الأرض مثل سمائها	تعطيك ملء هوائها والمنجم

قد سخر الكون العظيم بما وعى — لرضاك إن آثرت أن تتقدّمي
فأضعت عمراً ـ لا يقاس ـ بتافه — والقين مشغول بشحذ اللهزم
وجرحت نفسك بالجهالة مثلما — من ظلمه بيديه قد جرح العمي

إلى آخر هذه القصيدة المدهشة التي لا أعرف لها نظيراً في اللّغة العربية، وقد سمعت من الأستاذ لطفي جمعة ـ وهو الأديب المطلع على ثقافات شتّى ـ أنّ مثل هذه المناجاة المتدفّقة القوية لم يرَ لها نظيراً حتى في أشعار الفرنجة.

٦ ـ شعره الوطني:

إن إنسانية أبي شادي لم تحل دون شعوره الوطني، وما كان يمكن أن تحول وهو الذي يتسب إلى بيتين اشتهرا بأعلام الوطنية، ويكفي أن أشير إلى خاله العظيم المرحوم مصطفى نجيب الصديق الحميم للمرحوم مصطفى كامل باشا وساعده الأيمن في حياته، وإلى والده الجليل المرحوم محمد أبو شادي بك الذي كان من أقوى أركان الوفد المصري ومن زعماء النهضة المصرية.

ولكن الدكتور أبا شادي لا ينظر إلى الوطنية نظرة الأنانية والتعصُّب الأعمى بل يحلها محل التآخي الشعبي والقومية السليمة، ويفسِّرها تفسير الكرامة لأمّة رشيدة حيّة متحلّبة، بهذه الروح نظم شعره الوطني قديمه وحديثه، وبهذه الروح ألقى على المفرقين من أذناب الأحزاب الذين نعتهم بـ «سماسرة الهوان».

ولولا هذا الشعور القوي بالكرامة الوطنية ما نظم أبو شادي قصيدتيه الرائعتين «نكبة نافارين» و«مفخرة رشيد»، ولا ديوانه الحافل «مصريات». ولا خواطره الوطنية المؤثرة في شتى المواقف الشعبية؛ ولعلها أكبر مجموعة من الشعر الحي لشاعر مصري وقف جانباً عظيماً

من جهوده على تهذيب أمته. وأبو شادي يسلك في شعره الوطني مسلكين مختلفين ولكنهما يلتقيان: أحدهما مسلك الإهابة والتذكر والتشجيع للعناصر الصالحة من أمته، والآخر مسلك التقريع والتنديد في لهجة الناصح الأمين المخلص والمربي الحازم وكأنما قلمه مبضع الجرّاح الذي يعمل على استئصال الأورام الخبيثة وقد يجور في استئصاله ولكنه يغار دائماً على سلامة المريض.

فهذا أبو شادي الحكيم المؤرّخ والوطني الغيور يهتف في ختام قصيدته «نكبة نافارين»:

تلك المآتم أحيت جذوة لبثت	تحت السكون طويلاً دون كتمان
فأشعلوا عزمكم منها ولا تقفوا	فالقنع والعجز للتاريخ سيان
إن كان فيها انقضى ثأر لنهضتكم	فقد غدوتم وللإصلاح ثأران
قد سطر الأمس عنواناً لغايتكم	فامضوا ولا تكتفوا قدراً بعنوان

ولتجعلوا السعي قبل القول شارتكم
وربَّ سعيٍ صموت القول رنان
إن تبتغوا تحت هذي الشمس دولتكم
فالسيف والعلم والأخلاق للباني!

وبهذه الروح يتغنى ببطولة شهداء رشيد في موقعتهم التاريخية الشهيرة مع الأسطول الإنجليزي:

وسحينا (مصر) من ذكراهمو	تلك ذكرى عن بلوغ المحال!
بلغينا كيف أودى عزمهم	بصعابٍ قُمْنَ أقسى مِنْ جبالِ
كيف هزوا قوةً أكبرها	عالمُ القوةِ والحربِ الضلالِ
كيف ضحُّوا للرمال دمهم	في دفاع العزِّ عن تلك الرمالِ
كيف هدّوا سفناً سارت لهم	في اختيالٍ، فهوتْ دونَ اختيالِ

وبهذه الروح ودّع وطنه بقصيدته العينية البديعة التي ظهرت في جريدة «المؤيد» سنة ١٩١٢، ومن يطلع على أسلوبها الناضج الرائع يخيل إليه أنها من نظم شاعرنا في سنته الحاضرة، وما سر ذلك سوى نضوجه المبكر في نظمه ونثره على السواء. ومن ذا الذي يجحد قوة الأسر في هذا الشعر لفتى مغترب يودّع بلاده الحبيبة إليه وهو بعد في العشرين من عمره:

آنَ الرحيلُ فلا جوابَ لداعي، حتى أُتِمَّ لها مَقالَ وداعي
وأُسطِّرَ العهدَ الذي إنْ فاتني يوماً رعايتُه قصفت يراعي
في العيشِ أم في الموتِ، ما بين المُنى
والبأس، أذكرها بقلبٍ واعي
ستعيش أوطانٌ يُحقِّقُ عَيْشُها وتموتُ أوطانٌ بنعيِ الناعي
يا مَنْ يخاف عليَّ أن تُودِي النَّوى بعظيمِ تحناني لها ودفاعي
أنا لستُ مَنْ يَنْسَى الوفاءَ وإن تكنْ
عُقباه أوجاعاً على أوجاعي
أنا مِنْ طهارة ذمتي وسريرتي كالحقِّ معتصمٌ وراءَ قلاعِ
جارتْ عليَّ الحادثاتُ فسرّني عزمِيْ، وضرٌ بمهجتي إزماعي
فسكتُّ والقلبُ الكبيرُ يهزّني لمواطِنِ الأقدامِ والإبداعِ
ما الذنبُ ذنبُ فتىً يعُزّ بلادَهُ إن أقعدته عواملُ الأوجاعِ
الذنبُ ذنبُ القادرين على هُدى التاركين بلادَهم لضياعِ
البالغين بعلمهم أرقى العُلَى والهابطين بخُلقهم للقاعِ!

إلى آخر هذه القصيدة التي تلمح فيها الوطنية المتأجِّجة الصادقة، كما تلمح التحرُّر في تعابيره وأسلوبه في تلك السن المبكِّرة، وتلمح أيضاً روح التذمُّر من بيئته التي يقول عن أفرادها في غير تهيُّب:

البالغين بعلمهم أرقى العلى ... والهابطين بخلقهم للقاع

ومن ظروفنا الوطنية الحاضرة حيث ساد التفكُّك والخصومات وفترت العزائم وشغل الناس بالصغائر لا أعرف شاعراً مصرياً مضّه الألم والحسرة على حال وطنه والقى بشعلته في الميدان كما فعل أبو شادي بينما خرست جميع الألسن الأخرى، وحسبكم أن تقرأوا شعره الناري في ديوانيه «الشعلة» و«أطياف الربيع»، فهو شعر الخلود وشعر اللوعة الباقية.

تردّد للمتنبي ولحافظ إبراهيم ولغيرهما من أعلام الشعر العربي الذين عاشوا في مصر أشعار مشهورة في تقريع المصريين ولكن لا أعرف شاعراً في العربية - بالغاً ما بلغت منزلته - نفث مثل هذه السخرية اللاذعة كأبي شادي في أبياته «المومياء» (ص ٧٢ من «أطياف الربيع») حين يقول:

أسيرُ وكم أرى في الناس حولي ... أسيراً حالُهُ كالمومياء!
كأنَّ السِّحْرَ جرَّده ولكنْ ... يَلوحُ به التَّعمُّقُ في الفناء
فأُبْصِرُ فيه صورةَ آدميٍّ ... وما ألقى به مَعْنى الرجاءِ
فهل رحلَ الوَرَى عن مصر حتى ... رأينا الميتَ يرجع للوفاءِ؟!
ولكنَّ الفناءَ يُطِلُّ منهم ... وأهلُ الأمسِ من أهلِ البقاءِ!

وأما قصيدته «الضاحك الباكي» (ص ١٠٩ من ديوان «الشعلة») فأشهر من أن يُعرَّف بها لأنها من الشعر الذائع بين الجمهور، وقد نظمها عند اشتداد الظروف السياسية الأليمة، وكم يحزنني منها قوله:

يا مَوطناً كلُّ ما فيه يؤرِّقني ... وكلُّ ما فيهِ أتراحي وآلامي
مَنْ تَرَّمَ اللَّحنَ للصدَّاحِ في زَمنٍ ... أحق أن يتهادى بين أنغامِ؟

ومَنْ راى أنَّ هذا النُور منقصةٌ وأنَّ حقَّ الورى أضغاثُ أحلامِ
ومَنْ أباحَ لأصنامٍ مجرَّدة ذُلَّ الحياةِ كأنَّا دونَ أصنامِ ؟!

ولا شكٌ عندي في أن شعر أبي شادي الوطني سيكون من أخلد الشعر المصري، لأنه شعر عواطف حية وليس بشعر مناسباتٍ.

٧ ـ شعر العروبة:

من طبيعة أبي شادي الوفاء لأصله، فهو لا ينسى أن الدم العربي الذكي في أرومته من ناحية والده، وهو لا يجهل أن الجامعة العربية أسمى في غايتها من الجامعة القومية المحلية. ومن ثمة فهو يتسامى بالروح الوطنية تسامي الكرامة، ويخصّ الجامعة العربية بنفحة عالية من شعره الإنساني. هو يمجِّد وطن الفراعنة تمجيد الغيور على تراث وطنه وكرامته، ولكنه لا ينسى الجامعة الكبرى ـ جامعة العروبة التي لا تسمو عليها في نظره سوى جامعة الإنسانية. وهو يخصّ العروبة من قديم بصفوةٍ من أكرم شعره. ومَنْ مِنَّا ينسى قصيدته الطنَّانة في «الأسد الأسير» عبد الكريم (ص ٥٥) من ديوان «الشفق الباكي» التي يقول في مطلعها:

أكذا تَروعُ مَصائبُ الأبطالِ ؟! أكذا تَهُولُ مَصارعُ الآمالِ؟

وقصيدته الرائعة في حامد البقار (خليفة عبد الكريم) وفيها يقول شاعرنا مباهياً بعروبته ووطنيته (ص ٢٥٩ من «الشفق الباكي»):

إن العروبةَ والكنانةَ ملّتي دِينٌ يوحِّدُهُ الوفيُّ العابدُ
فلموطني رُوحي وكل جوارحي ولكم حنيني والشعورُ الماجدُ
يكفي لنا النَّسبُ العتيدُ مُجمعاً فجميعُنا صَيْدٌ رمَاهُ الصائدُ!

وقس عليهـا قصيدتـه «آخـر بني سراج» ص(١٧٦ من «الشفق الباكي») وقصيدة «دار ابن لقمان (ص ١٦٨ من «الشفق الباكي») وقصيدته «الزهراء» (ص ١٠١ من ديوان «أنين ورنين») وهي معدودة من عيون الشعر العصري. وفي مطلعها يقول:

يـا نـاشـدَ المُـلْكِ في أدراسِ أطـلالِ
يـكـفـيـك بـالـذِّكـر خُـلدٌ لـلسنـا الخـالي
مَـرَّتْ قـرونٌ عـلى المـاضي ومـا تـركـتْ
عـن رسـمـهِ أثـراً قـد غـابَ عـن بـالي
أأسـرفَ الحـبُّ حـتى صـار يُـلهـمُـني
وأصـبحـتْ صُـور الـتـاريـخ تـسـعـى لي؟!

وقد ختمها بهذه الأبيات الرائعة:

فيا سلالةَ مجدِ العُـربِ لا تَقِفُوا — عن الفَخَارِ فما الـدنيا بـأقوالِ!
وأنصفوا ذلك الماضي بحاضركمْ — ليومِكمُ وغدٍ، لا بالهوىٰ البالي
وإن نظرتمْ إلى الأطلال من ألمٍ — فـراقبوا أهلهـا في أسرِ أغـلالِ
فهمْ همُو الطَّلَل البـالي إذا قنعوا — ولم يعيشـوا كما عـاشتْ لإقبـالِ
ذِكْـرُ الجـوُدِ جيـلٌ في عـواطفِـه — لا غـايـة لـمـبـاهـاةٍ وإدلالِ
فإنما الفخـرُ في سَعْيٍ بلا مَلَلٍ — فـلا تكونـوا كنهرٍ غـير سلسالِ

وابـنـوا كـما بَـنَـت (الـزهـراءُ) عـن عـظمٍ
وحـاذروا جُـهـدَكـم مِـنْ طِـبِّ دَجَّـالِ

تحيا الشّعوبُ إذا أخلاقُها سلمتْ — ولم تَخَفْ حَمْـلَ أعبـاءٍ وأثقـالِ
ويُكْـرَمُ المرءُ إنْ غـالى بتضحيـةٍ — ولم يكنْ في مَجَالِ الصِّدْقِ بالغالي

وأما قصيدته «ذكرى الأندلس» (ص ٧ من «ديوان أشعة وظلال») فهي من شعره الفخم المردَّد، وهي التي يقول في مطلعها:

عُودِي لنا يا أغاني أمسِنا عُودِي وجدِّدي حَظَّ محروم وموعودِ
عودي لنا راوياتٍ مَجْدَ أندلسٍ وقدِّمي الشعرَ قُرباناً لمعبود

ومثلها قصيدته «عيد الإسلام» (ص ٦٦ من «أشعة وظلال») فكلها شعرٌ رصينٌ متألِّقٌ بالغيرة العربية الشريفة، وقصيدته «كارثة دمشق» (ص ٢٨٠ من «الشفق الباكي») وقد عبَّر الشاعر في هذه القصيدة التي كانت أولى المنظوم في موضوعها عن العواطف الحية التي سَرتَ في مصر عطفاً على شقيقتها في اللّغة والدين والحضارة والنسب. أنظر إلى مطلعها الرائع:

رِيعتْ لنكبةِ مجيركِ الأحلامُ وبَكاكِ باسم فخَارِهِ (الإسلامُ)
يا دُرَّةَ (الشرقِ) الشقيُّ بملكِه أبداً يُحاول نَهبكِ الظُّلاَّمُ
ضُرِّجْتِ بالدم في مَقامٍ قَدْرهُ أن تستقرَّ محبةٌ وسَلامُ!

وفيها يقول:

نكبُوا (أميّةَ) في مَقرِّ جلالهِمْ
لكنَّها نكباتُهُمْ أوهامُ
سيعيش رغمَ السيفِ باسقُ غرسِهمْ
وتبوحُ رغم المِدفعِ الأقلامُ

ويقول:

عِيشي (دمشقُ) وإنْ فُجِعْتِ وإن بكتْ
حقاً عليكِ مآثرٌ وعِظامُ
عِيشي فما ينسى بنوكِ وفاءَهم
كلا، ولن تتضاءل الأعلامُ
تلك الجراحُ ـ وإنْ تَبقَّى ذكرُها
عاراً على الجانين ـ قد تلتامُ

لبس السَّوَادَ على مَروعٍ مُصابها
أُمَمٌ، فهوِّن صبرَك البسَّامُ!

وقصيدته في «استقلال العراق» (ص ١٠٧ من «الشعلة») ناطقة بعطفه العظيم على الأقطار العربية الشقيقة وبإعجابه بنهضتها، ولذلك كان تأثره بالغاً بمصاب العروبة في فقد عاهل العرب العظيم الملك فيصل الأول الذي كان يحبه ويعجب به إعجاباً، فنظم على الفور مرثيته الباكية الدامية، فكانت أولى المراثي التي ظهرت ومن أقوى شعر الرثاء، وهذا مظهر مدهش لشاعرية أبي شادي المتوثِّبة المتأجِّجة. وهذه المرثية الخالدة لا تقع في غير ستة وعشرين بيتاً، ولكنها قصيدة جامعة مبلورة، ولم يقل شاعر بعده أبلغ مما قال، وهي تذكِّرني بمرثيةِ المرحوم شوقي بك للقائد البطل أدهم باشا فقد نظمها سريعاً في غير كلفة مدفوعاً بتأثره الشديد، فكانت على إيجازها من أحسن شعره في الرثاء. ورثاء أبو شادي للملك فيصل الأول من الشعر الخالد الذي يحفظ عن ظهر قلب. يقول أبو شادي، أو تقول دموعه بلسان الشاعر العربي الصميم الذي ينبض قلبُه بمحبة العروبةَ وباللوعة لفقد عاهلها العظيم:

هكذا هكذا شعوبٌ تُيَتَّم!
أيها الموتُ ساء غُنمُك مغنَمْ!

رزؤنا بالعظيم (فيصل) لا يجدُ
مصرَ في الخطب، إنما الرزء أعظم

علم كان للعروبة إيما
ناً وذخراً وعزة تتجسم

قد تمتد الحروب والفتح والبأ
س، كما قد نماه مجد تقدم

والصريح الصريح من روحه الحر
ة في بيئةٍ بها الحرُّ ينعم

الزعيم الجريء والفاتح الغا
زي أبو (غاز) المليك المكرم

بطل الثورة التي لم تزل تحـ — ـكي أعاجيبُها وتُروى بِدَمْ
بطل السلم والمعارك، سيا — ن بتدبيره الحصيف المقدم
جدد الملك من على آل عبا — س، وكم عاهل وملك تهدم
كم ترامت عليه أحداث أعدا — شداد وحزمه يتبسم
وتجنى عليه أقسى عدو — فإذا الموت ـ بعدما مات ـ يهزم
وإذا بابنه المرجى المفدّي — يحمل التاج في إباء تجهم
وإذا عالم العروبة وثا — ب وفي، وباسمه اليوم أقسم!

* * *

أيها الشعب يا سليل الألى سا — دوا، وما زال مجدهم يتنسم
نحن في مصر نسمع اللوعة الكبـ — ـرى لبغداد والنواح المنغم
ذاك شعر الحياةِ من روحك الحـ — ـي وإن كان في رثاءٍ ومأتم
نفخ الروح في فؤادك من قلـ — ـبٍ كبير على رضاك تحطم
مات في قمة الجبال، كما عا — شَ مثالاً في التسامي ومعلم
كالشهيد الذي تكفل بالرا — ية في الغزو فوق حصن ميمم
يخطف النصر بالدهاء ويمضي — طائراً جارحاً إذا النسر هوم
إن بكاه العراق أو أجفل النهـ — ـر وسيف بغمده يتضرم
فالأنين الأنين أصداؤه شتى — عميم، وقل خطب يعمّم
وقليل من ساد في الناس للنا — س، ومن علم الورى« تعلّم
وقليل من عاش في الشعب للشعـ — ـب زعيماً بعبئه ويألم

* * *

ذاك شعري من نار نفسي التي ثا — رت وناءت فكدت لا أتكلم
هو نفسي، فتسير في موكب الغا — زي وقد عاد كالكمي الملثم

٨ ـ شعره الفلسفي:

للدكتور أبي شادي فلسفة عميقة في شعره، وهي منبثّة في دواوينه في صور فلسفية عاطفية من الشعر الأخّاذ، وله حكم بعيدة الغور تأتي عفواً في جميع شعره. وقد وجه النظر إلى روحه الفلسفية الدكتور علي العناني أستاذ الفلسفة بدار العلوم والدكتور منصور فهمي عميد كلية الآداب بالجامعة المصرية.

هذه الفلسفة المقرونة بالتصوُّف البعيد هي جزء أصيل من شخصية أبي شادي، فهي أبعد ما تكون عن فلسفته العامة، وهي فلسفة من التفاؤل والتشاؤم يستوعب فيها الأول الثاني، ولم أجد أدل عليها من قصيدته «تشاؤم» (ص ٤٦ من «مختارات وحي العلم») التي يقول فيها:

تشاءمت حتى قد وجدت تشاؤمي
تفاؤل من ينأى عن العرض الفاني
وكم من هموم مرة قد شربتها
لنفسي وغيري في الحياة كإنسان
وما غاب عني ما بها من مصائب
ومجمع آلام ومعرض أحزان
ولم أنس يوماً ما حبالي من الأذى
إذا نبي الشاوي بحبرة بركان
ولكنني وجهت بحثي وخاطري
إلى خلف ما تبدي الحياة لوسنان
إلى ذلك الصفو اللباب من الحجى
إلى الأمل الحي المهيب بوجداني

إلى ما وعت دنياي من روح خيرها
وعاملها الساعي ومصلحها الباني
إلى قوة غلابة ليس ينتهي
لها عمل الإنشاء والهدم في آن
فأبصرتُ رُوحاً للجمال مُجددة
وأدركتُ أنا للجمال كقربان
فعزى فؤادي أن أكون ضحية
وأن يهب التجميل للكون حرماني
وأني إذا ما مت خلفت خبرة
لدنياي تستهدي بها بعد فقداني
فيكسب نوعي[1] بعد خسري وربحه
أجل، كأن الخسر ليس بخسران
فأصبحت حر النفس استمرىء الأسى
ووجدي كأن الهم غاية سلواني
وأيقنت أني صنو دنياي، فالذي
مُرجى رجائي، وهي رشدي وحسباني
وما خفت موتي كالغريب الذي قضى
وحيداً. فعمري والمنيّة سيان
حياة على الآباد تبقى بنوعها
وما عدمت للخلد أسطع برهان
فلما أطمأن الفكر ضحّت عواطفي
بأنسي ولذاتي وأجمل ريحان

(١) أي النوع الإنساني

وامتعت روحي بالنعيم الذي أبى
سخاءُ يوحي للعنيّ[1] وللجاني
وما لاح إلا لامرىء عاف إثرة
فعد شقي الحظ وهو هو الهاني
فيا بؤس زر وألهم قلبي وعذبا
فلن تهدما يوماً مَعاقلَ إيماني
تذوّقت مرّ العيش حتى جعلته
دوائي إذا ما الخطب أقبل يغشاني
ووزعت روحي في الوجود بأسره
فبات جحيمُ العيشِ أنضر بستان!

وأما نظرته الفلسفية الشاملة فتجدها في ملحمته الرائعة «شوبنهاور والحياة» (ص ٦١ من «مختارات وحي العام») التي ألقيت في الإسكندرية في أوائل سنة ١٩٢٨، ولعل بعض حضراتكم كان من مستمعيها وقتئذٍ، وقد انتهب هذه الملحمة الفلسفية الشائقة كثيرون من الكتّاب والشعراء، ولكنها ستبقى مذكورة كلما درست فلسفته في الحياة، وهي إلى جانب ذلك ترجمة جميلة لسيرة الفيلسوف شوبنهاور الزعيم الحديث لمذهب التشاؤم وتحليل شائق لها.

٩ ـ الطبيعة والمرأة في شعره:

يقول الأستاذ إبراهيم المصري ـ وهو شاعر بروحه إلى درجة بعيدة المدى ـ إن العلاقة الوثيقة بين المرأة والطبيعة هي التي جعلت الدكتور أبو شادي مفتوناً بكلتيهما روحاً وتكويناً، تصوفاً ووصفاً، فترى في شعره الحنان الوديع كما ترى الثورة الجامحة.

(٢) العني: الظالم: الغاشم.

أولاً أراني متهيّباً أمام مبحث يخص شاعرنا بقدر تهيبي هذا المبحث، فإنه فسيح الأرجاء يكاد يشمل جميع شعر أبي شادي. ولصديقي الأستاذ الجداوي دراسات وافية عن ذلك، كما أن للأستاذ البحراوي اكثر من بحث قيّم في غزليات أبي شادي أهمها ظهر في مجلّة «العصور» على ما أذكر.

وإني لمعترف بأني كدت أترك هذه الناحية من شعر أبي شادي لأنها وحدها قمينة بمحاضرات خاصة: فهذا أبو شادي الشاعر الغزلي المفتون بالمرأة المستلهم روحها وجسدها بأرقّ المعاني الشعرية استلهاماً يخاطبها قائلاً: (ص ٤١ من «مختارات وحي العام»):

بلغ التخيُّل منك غاية سؤله ... وكذا الحقيقة في الخيال تضوع
هل كان للدنيا سواك رجاؤها ... أو كان غير جمالك الينبوع؟
بنت «الطبيعة» أنت، آية فنها ... فعلى روائك فنها المطبوع
تعبت ملايين القرون فأبدعت ... ووفت: فكان سناؤك المتبوع
قسماً به لولاك ما حفز النهى ... داع ولا صحب النبوغ سطوع
لولاك أعلنت العواطف يتمها ... وقضى على لب الحياة الجوع
منك اسْتَمَدَّ الملهمون وأثمروا ... فالأصل أنت وما عداه فروع

والمرأة الجميلة عنده هي «الإله المتنكر» (ص ١١٦ من «أطياف الربيع»). الطبيعة والمرأة عنده هما موئلاه بل موئله، وقصيدته «الطبيعة» (ص ٢٦ من «مختارات وحي العام») جديرة بأن تكون من محفوظات الشعر العصري للمدارس الثانوية، فهي آية من الأدب الحديث. إذ هي وصف في فلسفة في وجدانيات في تصوف وكل ذلك بأسلوب أخاذ. ودواوينه زاخرة بأوصاف كل من الطبيعة والمرأة وبمناجاتها، وبذكريات تنعّمه بها أو حرقته في البعد عنها أو بأخيلته

التي يسبغها عليها أو يستوحيها منها. خذوا مثلاً هذه الأبيات عن «غادة البحر» (ص ٨٢٢ من «الشفق الباكي») يصف حسناء في قميص شفّاف وهي تمرح على شاطىء البحر في الإسكندرية وقد استرعت الأنظار إليها:

هيفاء ينبض بالملاحة جسمها ... فترى الحياة من الثياب تطل
فكأنها الزهر المحجب بعضه ... بالطل، لو يخفي الملاحة طل
أو إنما هذي الثياب تحوّلت ... فغدت مثالاً للحياة يجل
كشفت جمال الساعدين: كلاهما ... سحر له من المقلتين محل
فأغازل الألوان من نور حلا ... متناسق صافي الشعاع يدل
وأعاف نور الشمس جنب صباحة ... تستأثر الفنان أو تحتل

* * *

وهفت إلى الموج الطروب فأظهرت ... قدمين لونهما حكاه الفل!
لهما الرشاقة مثل ساقيها، فما ... تبتل خفتها كما نبتل!
تجري وتمرح في سرور لاعب ... والماء يرقص والرمال تعل
والناس قد شغلوا بها عن لهوهم ... وعن الحسان اللاعبات تخلوا
فتأملوها ذاهلين، وأسرفوا ... بتأمّل هيهات منه يمل
ونظمت شعري من شعور عبادتي ... للحسن فهو من الحياة أجل

ولكن حرام أن أتوسّع في الاستشهاد والشرح فإني لن أنقل لكم سوى قطرة من بحر، وهذا جانب عظيم من شاعرية أبي شادي جدير ـ كما قلت ـ بدراسة خاصة عميقة.

١٠ ـ شعر الأبوة والطفولة:

لأبي شادي شعر من الأبوّة أخّاذ لأنه إملاء حنانه الأبوي الدافق، وله شعر جميل في الطفولة، وقلّ ما نرى هذا الشعر لأن لأكثر شعر الطفولة في أدبنا العربي منظومات صناعية سخيفة فقط. يقول أبو

شادي مخاطباً ابنته صفيّة (ص ٣٣ من ديوان «أنين ورنين»):

لأنت أحب عنــدي من حياتي	فــاخشى قبلتي وأخاف لمسي
وألثم من يـد لـك في خشوع	جـواهر من أنامـل منك خمس
وأرشف حين تومىء لي انضماماً	سـلافة كـأسهـا بـأحبّ كـأس
وأشهـر في ثنيتهـا ابتــداعـاً	سلاح (كبيد)[1] من سهم وقوس
تخـذت من القلوب أسر مرمى	فلم يقتـل سـوى حـزن وبؤس
وأجمع حولك الأصحاب نصغي	ونهمس مـثـل رهبـان وقس

إلى أن يقول:

نـزلت بنـاظـري وتخـذت قلبي	مكـان اللّهو هـزّ كهـزّ كـرسي!
خفـوق من مـداعبـة ولهـو	وكم جـازاك من سجن وحبس
يـظل بـك الضنـين عـلى فؤاد	ينـاظـره[2] بحب غـير بخس
فإن زدناك حـرصاً بعـد حرص	.ولم ننصفـك من حـق أمس[3]
فلا تذري ابتسـامك فهـو سحر	ولا تبكـي، ومــا أولى التأسّي
فموعـدنـا لـك اليـوم المرجى	فكم أوليتـنـا أفـراح عـرس

وله شعر آخر بديع في بقية أولاده يشهـر بحنانـه العظيم وبمحبتـه الأبوية الجميلة، وأمـا شعره لـلأطفال فلعله مستمـدّ من حبه لأولاده (وهو منبثٌ في دواوينه) وإن لم يعين دائماً أنه كذلك، لأنه وقت مَرضه لم يكن يعني بالذات أن ينتفع منه الأطفال. مثال ذلك أبياتـه المعنونـة «لعبـة ابنتي» ـ وقد أمـلاها كـما علمت منه عـلى الأستاذ شعبـان زكي المصـور ـ (ص ١٠٦ من «أطيـاف الـربيـع») مستـوحيـاً لعبـة لابنتـه الصغيرة (هدى):

أنــت يــا لــعـبــة ابـنــتي	ذات روح	وخــفــة
أنــت عــنــدي عــزيــزة	وهــي عــنـدي	عــزيــزتي

(١) إله الحب. (٢) يعني فؤاد أمها. (٣) يعني حريتها.

أنت مثلت طبعها في صفاء المحبة
هرّة أنت، إنما أنت لي غير هرّة
إن عينيك فيهما سرّ لبّ وفطنة
أترى حزت سحرها كم لدى الحب آية
كم توسّدت جنبها في فراش بنعمة
كم تملّيت روحها في حنان ورحمة
كم تشاكيتما على نظرة بعد نظرة
كم تصاحبتما على كل سرّ وشدّة
فإذا أنت رمزها ربّ رمز بدمية!

وإليكم مثالاً آخر «الصديقان» على لسان تلميذ (ص ٦٨ من «أطياف الربيع»): أول الأصدقاء في هذه الأرض وأبقاهم بخيري وسقمي والد منجب وأم إليها وإليه ملاذ روحي وجسمي كيف أنساهما وكيف تراني منكراً للولاء أو للجميل؟ أنا قلباهما، وهذي حياتي لهما، وهي للرّجاء النبيل جاحد الوالدين ما كان إلاّ جاحداً ربه وجاحد نفسه طائع الوالدين ما كان إلاّ عارفاً نفسه ومنبع أنسه.

وقصيدته «البيت» (ص ٦٨ من «أطياف الربيع») التي تحبّب إلى الكبير قبل الصغير نعمته:

بيتي، وهل بيتي سوى جنتي؟ فكل ما فيه عزيز حبيب
يحنو، وكم يحنو على مهجتي وكل ما فيه عطوف رقيب
من زهره الباسم، من عشبه من مائه العائد فوق الحصى
من طيره العابث في وثبه من كلبه اللاّعب مثل القطا
من كل نور أو ظلال به وكل صوت أو سكوت عميق
أستقبل الترحيب من حبه والمح الحب يشقّ الطريق

وأسمع أقدامي لها كالصدى   من سقفه أو من جدار تحاليا
كل ما حولي صديق: إذا   عبست لم يعبس وناجى رضايا

وقد نوّه الأستاذ الجداوي من قبل بشغف أبي شادي بحياته البيئية وإن شاقته الحياة البوهيمية أحياناً، فهو يعبّر في أبياته هذه عن عاطفة صادقة لا شك فيها. ولعل حبه لبيته ناشىء عن شعوره بالاستقلال الذاتي فالبيت هو المملكة الشخصية المحترمة، ولعله ناشىء كذلك عن وداعته التصوفية التي تحبّب إليه العزلة. ومن يدري: فربما كانت المرأة مما يحبب إليه البيت، وربما كان البيت مما يحبب إليه المرأة، فقد خصها بالعظيم من تقديره لأمومتها ولنصيبها في حياة الأمة حتى قدمها على الرجل من غير تردّد... والحق أن أبا شادي أعظم نصير للمرأة بين شعراء العربية. استمعوا إلى قوله (ص ٧٩ من «مختارات وحي العام»):

أنت التي هي مأملي في أمتي   فإذا انتصفت فكل صعب هيّنٌ
لو كان لي حق التصرف لم أدع   متسلطاً بعلاك لا يتدين
يبني البناة، وقد نسوك وما دروا   فكأنهم بعد البناية ما بنوا:

ولست أدري يقيناً هل كان يحب أبو شادي المرأة هذا الحب العظيم لو لم يكن قد تزوج أم لا، ولكن يغلب على ظني أن هذه عاطفة أصيلة في نفسه، بدليل قصيدته التي رفعها إلى السلطان حسين (ص ١٢٤ من «أنين ورنين») والتي يقول فيها هذا البيت الخالد:

وإنما المرأة الدنيا بما جمعت   إذا تربّت وصانت حسنها الغالي!

١١ ـ شاعر الديمقراطية:

تبذّل عندنا الشعر كما تبذّلت الحياة العامة فصار الشعر السياسي لوناً من التهريج، بعد أن كان وسيلة من وسائل النهضة يأتي عفواً بضغط العوامل النفسانية المتمشية من شعور الشعب وقادة الرأي فيه إن سامة كتّاباً أو شعراء، فلمّا تبذّل الشعر صار ينظر إلى الشاعر السياسي كمحرر أجير في إحدى الصحف يستوحي أسياده وآجريه ما ينظمه، حتى إذا طغت الأزمات السياسية أخيراً مات هذا اللون من الشعر بلا أسف عليه، ذلك لأنه شعر صناعي يخلق ويمنع حسب أهواء الأحزاب وليس وفقاً لعواطف الشاعر.

ولكن وسط كل هذا يتجلى شعر أبي شادي الديمقراطي ويرتفع صوته حينما تخفت جميع الأصوات، وآية ذلك أنه شاعر حسّاس مطبوع لا يستطيع أن يقاوم وحي وجدانه، فالروح الديمقراطية متمشية في جميع شعره قديمه وحديثه على السواء، وقد خصّ الفلّاح والفلّاحة بقسط وافر منه.

يقول أبو شادي في خطابه إلى «الديمقراطية» (ص ٢١ من ديوانه «مصريات»):

يا منار الهدى لشعب تقدم ... عشت للمجد والحضارة معلم
أنت عون الإنسان إن أعوز الرأ ... ي، وحول إذا الزمان تجهم
أنت ذخر الضعيف في موقف الحـ ... ـق، وسيف به يصان ويسلم
أنت خصم القوي في موقف الظلـ ... ـم يخرّ الحق منه ويندم
أنت سر الحياة في حلبة السبـ ... ـق ووحي العلى لملك معظم

أنت أنت الرجاء للنهضة العظـ ـمى إذا صح أن بالفكـر مغنتم

وبهذه الروح يـدافع عن حقـوق المستضعفين والمضـطهدين ويتغنى بجمال الريف السـاذج حيثما ضـاعت الفروق المصـطنعة التي تغلبهـا الحضارة. وما أجمل إعجابه بالفلاحة العاملة وإكباره لشـأنها (ص ٢٩ من «مختارات وحي العام») إذ يقول:

سيري خلال القـطن بين تبسم — مـا القـطن إلاّ من تبسم فيـك
ودعي الذي يدعـوك ربة مصره — يجني ابتسـام الحب دون شريك
إني أبـايـع بـالسيـادة من لهـا — في مجد وادي النيل مجد مليك!
ربت لـه همم الرجـال وأطلعت — أمـلاً كـوعـد للصبـاح وشيـك
وأعـز ثـروتـه سخـاء بنـاتهـا — وحبورها جـدوى لكل ضريـك
وكأن دِفق الشمس لفظة ثغرها — فيحـول في طمى يعـز سبيـك

* * *

يا وحي (بنتاؤور) لم تـزل العلى — كـالفن في أيـام (منف) تليـك!
مـازلت لابسـة الحـداد كسيفـه — فلتنـزعيـه، فنحن نستـوحيـك
أنت المؤلهـة العـزيـزة بيننـا — وإن احتملت متـاعبـاً لـذويـك
سـيري متوَّجـة بتـاج محبـةٍ — للنفـع والإصلاح جنب أخيـك
وإذا تنـاسـاكِ الـذين تخـاذلـوا — جـاهدتِ إشفـاقاً عـلى ناسيكِ
وعملتِ زارعـةً وحـاصـدةً لهم — وغـدوتِ أفئـدةً بـروحٍ فيـكِ
حتى إذا انقشـعَ الغـرورُ تنبَّهـوا — فـإذا العتيُّ النفسِ يسـترضيـكِ
ويعـاف إلاّ أن تكـوني حُـرَّةً — في عيشـةٍ تهـنيـهِ إذ تهـنيـكِ
قسماً بقدركِ لو نُصفتِ لأدركتْ — (مصرُ) العزيزةُ كلَّ ما يُـرضيكِ

فهذه القصيدة الحية تنبض بروح الـديمقراطيـة الشريفة، ولـو كان

لمثلي شأن في التعليم لجعلتُها من المحفوظات الواجبة في المدارس الثانوية للبنات والبنين.

١٢ ـ شعره الغنائي:

فتن أبو شادي بالموسيقى كما فتن بالنقش والتصوير منذ حداثته فكان الشاعر المصور الموسيقي في مواقف شتى وربيّ على الحب منذ صغره فكان شاعر الحب والجمال حتى في كهولته! وخلق من الإحساس البالغ ومن الأعصاب المرهفة فكان شاعر الخيال الجامح والمُثُل العليا، وذاق مرارات الحياة وأوصابها وتلقى دروس الدهر العديدة في حياته الجوَّالة واختباراته الشاملة وطالت تأمُّلاته فكان الشاعر الفيلسوف. وهذه الصفات المتعدِّدة لشاعريته ـ معنىً ومبنىً ـ هي التي تجعله يعجب بمطران وشوقي وشكري وناجي والشابيّ في وقت واحد، على ما بينهم من اختلاف.

وكم أضحكني أن يقول المغرضون إنَّ أبا شادي ليس بشاعر موسيقى بينما هو أول من نبَّه إلى الصفة البارزة في شعر شوقي وهي موسيقيته وقتما كان المقرّظون يخلطون في وصف شعر شوقي خلطاً عجيباً... إن أبا شادي شاعر موسيقى من الطراز الأول، وإنما موسيقاه ألوان وألوان، وهي تختلف جد الاختلاف حسب المناسبات والمواقف، شأن الفنان المطبوع المثقف في تنويع إبداعه. وأما موسيقى الرنين التي اعتادها المحافظون فليست من الفن الحالي في شيء، بل لقد أفسدت الأذواق إفساداً.

قرأت مرة عن أحد قضاة الإنجليز ـ ولا أذكر اسمه الآن ـ أنه كان يكره سماع الموسيقى، ولم يكن لذلك علة سوى أن أذنه وأعصابه ليست بطبيعتها مصقولة لهذا السماع فكانت تفر منه، وكم بيننا من

أناس تتفاوت كثيراً بينهم درجة الصقل السماعي للموسيقى فيجازفون بالأحكام الخاطئة على شاعر هو موسيقي بطبيعته وفطرته!.

والمطلع على أوبرات أبي شادي المختلفة يدهشه ما فيها من حلاوة الأنغام الجديدة والقديمة، وقيسوا عليها أغانيه البديعة التي تهافت عليها أشهر المغنين والمغنيات ولجنة النشر والتأليف الموسيقية، ولولا أن تيّار العامّيه قد اكتسح أمامه ما عداها ولولا تخاذل الشعراء لكان لهذه الأغاني شأن عظيم في الحياة الاجتماعية في وقتنا الحاضر وإن كنت أرتقب لها ذلك في المستقبل... يقول ناجي: «هذه الأغاني فيها سحر، وعذوبة، وفيها تجديد، وفيها بعث وحياة». وقد حلّلها البحراوي بفصل بديع في ختامها يستحق أن يدرس، فأكتفي في هذا المقام بنموذج واحد منها وأؤكد لحضراتكم انه ليس أروعها بل هو أول ما وقعت عليه عيني منها. قال أبو شادي في «الكروان الرسول» (ص ١٠ من «أغاني أبي شادي» ج ١):

بالله يا كروانْ تكفيكَ أشجاني!
بلِّغ حبيبي الآنْ أنِّي له الفاني
لم يَبْقَ غيرُ الرُّوحْ في قلبي المجروحْ
مَنْ لي سواه أبوحْ مهما تناساني؟

* * *

بالله يا كروانْ تكفيكَ أشجاني!

* * *

يا صاحبي الفنَّانْ لا زال لي فَنُّكْ
نجوى هوًى وحنانْ ما شابَهُ مَنُّك
تستقبلُ الإلهامْ مِنْ وَجْهِه البسَّام

والشعرَ والأنغامْ مَنْ فيضِ وجداني
بالله يا كروانْ تكفيكَ أشجاني!

* * *

قد مَرَّتْ الأعوامْ سَكْرَى بآلامي
والقلبُ فيه ضِرامْ تُذْكي بأحلامي
ولوعتي بالبعادُ تُذيبُ حتى الجمادْ
فكلُّ عيشي نفادْ لولا الهوى الباني

* * *

بالله يا كروانْ تكفيكَ أشجاني!

ويجب أن لا ننسى فضل أبي شادي من تطويع اللّغة العربية حتى تسلس لآذان العامّة بدل أن يهبط هو إلى مستواهم ويجاريهم. وهذا ما ينتظر من شاعر لا يتملّق الجمهور ويودّ أن يتسامى به بدل أن يتدلّى إليه كما فعل كثيرون من عباد الشهرة الجوفاء.

١٣ ـ شعره القصصي والدرامي:

لأبي شادي شغف أصيل بالقصص والأساطير يستوعبها ويدرس أصولها وفلسفتها، وقد ضمن شعره غير قليل من قصص الميثولوجيا، ونظم قصصاً عصرية طريفة ما بين مبتكرة ومعروفة مثل «عبده بك» و«مها» و«بأمر الحاكم بأمره». فكان يتجلى فيها جميعاً خياله الرائع وروحه المصلحة الإنسانية وتقديسه للحرية والجمال يضاف إلى ذلك الكثير من أقصوصاته الرمزية الشائعة في دواوينه.

وقد نظر أبو شادي نظرة الناقد الفاحص فوجد الأوبرات معدومة في الأدب العربي بينما يعبث العامة وأنصاف العامة بهذيانٍ كثيرٍ

يطلقون عليه اسم «الأوبرا» فعمل على تصحيح هذه الحالة ووضع أساس هذا الفن في مصر، ثم أخذ يلتفت إلى خدمة المأساة والدراما الشعرية غير الغنائية فكانت أولى فتوحاته روايتي (نفرتيتي) و(المماليك) وسيكون لأبي شادي شأن عظيم في خدمة الشعر المسرحي، بغض النظر عن مبلغ استعداد رجال المسرح للتعاون معه، إذ ليس لمثل أبي شادي ما كان للمرحوم شوقي بك من المال والجاه اللذين كانا يفتحان الطريق أمام جميع أعماله بصرف النظر عن قيمتها الفنية. . . فنحن في بيئة لا يبهرها الفن لذاته وإنما تتأثر بالمظاهر والإيحاء، وإذا كانت هذه البيئة التي لا يتملّقها أبو شادي قد بدأت تلتفت إلى أعماله الرائعة بشيء من الخجل فما ذلك إلاّ من قيمة هذه الأعمال في ذاتها، ومن شخصية الرجل المعتز بنفسه وأثره. ولكن لا قيمة لهذا الالتفات ما لم يكن شاملاً كافياً لاستغلال مواهبه أحسن استغلال.

لغته وأساليبه:

يطول بنا الموقف لو أردنا استقصاء فنون الشعر لأبي شادي فلنكتفِ بما تقدم من عرض عام لأهم مظاهر شعره وخواصه وفروعه وجداوله. ولعلّي مطالب بكلمة عن لغة أبي شادي وشعره، فهل أجد ما هو أفصح وأبين من قول إمام المجدّدين الأستاذ خليل مطران عنه الذي أشرت إليه قبلاً، ومن قول شاعر مصر الكبير الأستاذ أحمد محرم: «تسير في جوانبه فلا تملّ ما فيه من حسنه المجدّد، ولا تبرح تستزيده رونقاً وبهجة وتود كل الودادة أن لو استكثر صاحبه الأديب العريق. . .» أو إعجاب العلامة اللّغوي الكبير الأب الكرملي باقتداره اللّغوي على التعبير اقتداراً مدهشاً حتى أنه ترجم رواية

(العاصفة) أشق روايات شكسبير في لغتها واستعاراتها بأسلوب عربي صميم آية في المتانة والإعجاز.

إن الدكتور أبا شادي في نثره ونظمه على السواء عظيم التمكُّن من اللّغة العربية، وهو يستعملها بين الرصانة والجزالة والليونة والسهولة حسب المواقف والمناسبات، سواء أكان ذلك من تآليفه العملية كالطبيب والمعمل وتربية النحل أم في أعماله الأدبية المعروفة. وهو يزن كلماته وتعابيره ويكره الثرثرة والإسراف وإذا عيب عليه التركيز أحياناً ففي هذا التركيز متعة عظيمة للأديب المثقف الذى يجد الكلمة الشعرية لأبي شادي في مقام بيت لغيره، والبيت بمقام مقطوعة لسواه، هذا إلى ما تحمله أكثر ألفاظه وأبياته من الابتكار العجيب والإبداع المدهش على حد تعبير الأستاذ خليل مطران. وقد أعجب بلغته وأساليبه كثيرون من الأعلام في مقدمتهم الأساتذة مصطفى جواد، ومصطفى صادق الرافعي، ومحمد صادق عنبر، وهم من صفوة أعيان اللّغة.

وللدكتور أبي شادي اطلاع واسع على علوم اللّغة، ولكنه يبيح للشعراء ما لا يبيح للناثرين، حرصاً على جمال فنهم من أن يكون عبد القيود التقليدية السخيفة وحتى لا تضيع ملكتهم الأصيلة ويصبحون في زمرة المنشئين الناظمين بدل أن يكونوا فنانين مبدعين، إذ الواقع أنك قد تفسد الشاعر فيصير منشئاً لغوياً وهذا لا ينفع الشعر أقل نفع في حين انك لن تخلق من اللّغوي الناظم شاعراً إذا لم يكن الشعر من طبيعته ودمه. . يقول أبو شادي (ص ١٥٨ من ديوانه «أنين ورنين») في «حرية الشعر»:

ما كنتُ من أهلِ الإباحة غافلاً	أو مُرْهِق الأدب الكريم قُيودا
لكنَّ للشعر الصحيحِ مَكانةً	هيهات يَبلغها النُحاةُ صُعودا

ما زلَّ مَنْ أحيوا البيانَ بوحيهمْ   بل زلَّ مَنْ حسبوا البيـانَ جمُودَا
والشعرُ فنٌّ لا يُعابُ جمُوحهُ   عن بعضِ أحكامٍ رُفِعْنَ بُنُودَا
خُلِقَ الذين سَمَوْا به وبقَوْمِهمْ   أمراءَ، لا تَبعَ[1] الرجالِ عبيدا

هذا هو الشاعرُ المصريُّ المجدِّدُ العظيمُ الذي تُعنى «جماعةُ الأدب المصري» وغيرها من الهيئات الأدبية بالحفاوة بأدبه، والذي ترنّ صيحاته التجديديّة في العالم العربي فتترك آثارها الطيبة، والذي لا يرى الجمالُ الفني في نفسه بقدر ما يراه في آثار أقرانه في شتى الأقطار، فيعمل على التنويه والحفاوة بتلك الآثار وينشىء لنا أقوى مدرسةٍ حيّةٍ عرفها الشعرُ العربيُّ في جميع عصوره.

(١) تبع: جمع تابع وهو الخادم.

نقدُ ومُلاحَظات

١٥ ـ الأطياف في شعر أبي شادي

قرأت قصيدة من شعره أسماها «عودة الطائر» فملكت جماع مشاعري، وعانقت جميع عواطفي وإحساساتي والدكتور كثيراً ما يقول الشعر الرصين الجميل، ولكن هذه القصيدة كانت تضم إلى عناصر الجمال التي ألفتها في شعر الدكتور عنصراً آخر، جاهدت نفسي قليلاً حتى توصلت إليه وحللته تحليلاً ولم أتمالك نفسي، بعد أن شربت روحي معاني القصيدة المسكرة، عن الصياح وإظهار عبارات الاستحسان الصادقة. ثم هنأته على هذا العنصر الجديد الذي بدا في قصيدته «عودة الطائر» وتمنّيت له أن يساعده الحظّ في استعمال هذا العنصر وغيره، في شعره الذي يلي هذه القصيدة، حتى يخرج على الناس بديوان جديد، يهاجم جمود أدباء العربية المتمسكين بالقديم. ويبلّ صدى الشعراء المجدِّدين الناهضين. فكان أن أجاب في ابتسامه الدائم أنه سيصدر في العام القادم ديواناً جديداً اسمه «أطياف الربيع». ومضت أشهر الصيف ثم عدت إلى القاهرة فإذا «أطياف الربيع» قد طبع فعلاً، فكانت مفاجأة سارة مدهشة. . . منها علمت وتعلم معي مبلغ دأب الأديب الكبير، وشدة تفانيه في الإنتاج والعمل. . .

أما العنصر الجديد الذي غمر هذا الديوان، والذي لمسته أولاً في قصيدة «عودة الطائر» فهو «الأطياف». أجل، عبادة جديدة الدكتور أبو شادي يعبد «الأطياف» ويقدسها تقديساً، ويأتي في وصفها بصور

لا أكون مكابراً إذا قلت إنها الأولى من نوعها في الشعر العربي، فإذا صحنا الآن في جرأة قائلين إن الدكتور فتح في أغراض الشعر العربي فتحاً عظيماً مباركاً لم نكن مغالين؛ يقول الدكتور في إهداء الديوان:

أعيشُ ببسمةٍ وأعدُّ زادي أشعتَها وأشربُها مُدامي!

هذا عجب عجاب! الدكتور يقتات بشعاع الابتسامة... فيا له من قوت روحاني طهور، والنظر إليه من «تحت الوسادة» كيف جعل الأغاني تعشق النور من فاتنته، فترى على أشعتها الصافية ضياء الحياة وأمانيها...

خبّأتْ أغاني الحب تحت وسادة بسريرها
فكأنما خبّأت بها روحاً تحنُّ لنورها
واستنشقت منها العبير وقلت معناها
فرأت بها نورَ الحياة وحظها وغناها

إن هذا التصوير الرائع والخيال الجديد ليشعران المرء بصورٍ فتانة لم يألفها الأدب العربي فيما نعلم... وهو لا يكتفي برسم الأطياف وتصوير النور فقط بل يحلّل هذا الضوء تحت مجهره، ولا غرو فهو رجل علم، وهذا أثر علم الضوء في شعره، وهذه قصيدة «إيليا وصموئيل» برهان ناصع على تأثيره بعلم الضوء...

وترى زرقة السماء تراءت من رضاءٍ من الإلٰهِ العليّ
نفذت من غضون نافذة البيت كطيف من السماء مَرِميّ
وتجلّى المصباح بالنور أمواجاً كموج الحياة في كل شيّ
وبدا في سكونه الأسر الليل كمعنى ببهجة الألمعي
وتخال الأصباغ في ملبس الشيخ بياناً من الشعاع السني

فهذه صورة حية كصور «السينما» تحس فيها الحركة وتحس فيها

النشـاط. . . فزرقـة السماء تـراءت في رضاء الآلـه العليّ ونفـذت من غضون نافـذة البيت كطيف. . . أجـل كطيف عكس من السـماء على البيت. . . ألا يقول لنا علم الضـوء إن الأطياف تنعكس. . .؟ فـأي إبداع بعد هذه النماذج بين علم الضوء والشعر الرقيق المتجـلّي في هذا البيت؟.

نفـذت من غضون نـافذة البيـ ت كـطيف من السـماء مَـرميّ

إلا أن هـذا هو الجـديد الـرشيق من المعاني الـذي لم يكن منـه في الشعر العربي أثر من قبل. . . وهو يعشق النور في المرأة وهل المرأة إلّا عمود نور علوي فاتن، ولذلك فهو يحدِّث حبيبته عن إجابة له وجَّهها للربيع في قصيدته «رسالة الربيع» إذ يقول:

فـأجبتـه بـتحيّـةٍ عـلويّـةٍ وعشقت فيـه النور من خـديك

ظهور نور خدّي حبيبته من نور الربيع وضيائـه ولذلـك فهو يحيّيـه تحيّة علويّة. . . ثمّ يوجه إليها الخطاب:

وَحـلُ من النـوّار ألثمهـا كـما لثم الصبـاح النـور من عينيـك

أي والله! هذا هو الشعر الجديد الرائع. . . لِمَ لا يلثم حلى النـوار والصبـاح يلثم النور من عيني فـاتنته؟. . . لا ريب أن القـارىء يرى أنـنـا لم نكن مغالـين حينما قلنـا إن هذا فتـح جديـد في معـاني الشعـر العربي. . . !

وهو في أغرودته «عند الجبل الراصد» يقول عن صورة التي أحبها، فيبدع غاية الإبداع:

فلثمتُ ألـوانَ العـزاء بـوحيهـا لـثـم الضريـر في الـظلمات
وبكيتُ لكنْ بـالأسى في نشـوةٍ فتـلاقت البـسمات بـالعبرات!

إلى أن يقول شارحاً لحبيبته حالته النفسية:

فإذا غُنيتِ بها خلقتِ بليلها قبساً فصار النورُ من آياتي!

فعلاً صار النورُ من آياتك، فهل غُنيتْ بها حقاً؟

ثمُّ نجيء إلى نشيده الخالد «عودة الطائر» الذي كان له أكبر الفضل في إثارة اهتمامي بهذا العنصر الجديد في شعر أبي شادي، ألا وهو عنصر «الأطياف» وكان بودّي أن أنقله بتمامه للقارىء فهو يصور قصة لقاء بين الشاعر وهواه وحذف شطرة واحدة تشوه الجمال الشعري وتسيء إلى مجموع القصة، بيد أني مضطرٌ إلى إيراد ما يتعلّق بالنور فقط.

وعلى من يريد أن يتمتّع بتلاوة هذه النفحة الجريئة الجميلة حقاً أن يعود إلى الديوان.. يقول الشاعر الكبير واصفاً الجو السحري الذي ضمه وحبيبته:

النورُ مسكوب رشيقْ كالصفو في دنيا الهمومْ
خمرٌ من الظرف الرقيقْ قد هُيِّئتْ خلفَ الغيومْ

هذه الصورة قوية رائعة، واعترف أن كل تعليق عليها مني أو من سواي فيه إساءة إلى دويها في الذهن وأثرها في الروح، إلى أن يقول:

أرسلتُ روحي حرّة بين الأغاني والضياء؛
حتى أراها مرّةً تحيا حياة الأنبياء

وهل هناك أصفى من الأغاني وأطهر من الضياء؟ فأرسل روحك يا شاعري كيفما تشاء وأطلقها بين الأغاني، وألق بها في وهج الضياء، فإنك إن فعلت فقد تحقّقت لك حياة النبوة الطاهرة الصافية، ولك عندها أن تقول:

خذ قبلتي أخذ المنى من كل أطياف الربيع
فيها الحرارة والسنى فيها البشاشة والدموع

لا ريب في هذا ولا جدال مطلقاً، فأنت قد أرسلت روحك على سجينها تخوض الأغاني والضياء فتطهّرت من كل رجس، وصارت روح نبي.. أجل، روح نبي، ثم عدت وأنت في حالتك من الطهارة والنقاء تعطي قبلتك كأطياف الربيع تحوي السنى والحرارة، وتجمع بين الدموع والبشاشة! ومن قصيدته (الأغاني الصامتة) يحدثنا عن شعره فيقول إنه ناطق في صمته مثل...

الشمس من قبل الفجر توحي بنورٍ للعاشقْ
والنورُ يُلمح في السرّ

وهل العاشق ممن يرون نور الشمس بشروقها فقط؟ يحدثنا الشاعر أن الشمس توحي إليه وحده بنورٍ قبل الفجر يلمحه على انفراد، ثم يأتي برأي جديد هو أن (النور يلمح في السر)..! صدقوه أيها الناس فهذا شعر جديد، يؤدي رسالة جديدة تستأهل الإيمان والاعتقاد!.

وقد يذم لك الشاعر النور في بعض مظاهره، لا لأنه عديم الجدوى ولكن لأن صورة جديدة له قد استرعت اهتمامه، فغطت على المظهر الطبيعي.. فهو يذم نور المصباح بل يطفئه... أجل يقول لنا عن موقف له مع فاتنته (في المعبد):

أبينا النورَ: فالقبلا ت شعلةُ مهجتي الحرى
ولم أحفل بصوت الوقـ ـت أو بهواجس الحيرى!

فهو يرى في قبلاته ضوءاً يكفي لإنارة المكان، فلا داعي إلى النور الكهربائي! ويبدو تقديسه النور وتفانيه في عبادته كذلك في قصيدته (الجمال العربيد)، وفيها يقول:

قبّلتُها فلثمتُ أحـ ـلامي وأطياف الربيعْ
وضممتها فضممت أغـ ـلى النور من رب وديعْ
ما هذه الأضواء والـ ـألوان من ربي الكريمْ؟
أكذا المصور من سما ء الفن يبتدع النعيمْ؟
فتبسَّمتْ وتنهَّدتْ بالنور والنار معا
واستسلمتْ وتمنَّعتْ حتى دنا ما امتنعا
روحان قد خُلقا كما خُلق الضياء مع الحرارهْ
يتمازجان تهافتاً وكلاهما قد نال ثاره!

هو يلثم في لثمه إياها أحلامه وخيالات ربيعه، وهو يضم في ضمه إياها أغلى النور من الربِّ الوديع، ثم هو يعجب من ألوانها وأضوائها ويندهش من صنعة الله القدير ثم هي تتبسم نوراً وتتنهَّد ناراً، وتستسلم ثم تتمنَّع، ثم تستسلم فتقع بين أحضانه وتمتزج روحه بروحها كما تمتزج الحرارة بالضياء في تهافت وشوق، حتى ينال كل منهما من صاحبه ثاره. . . الا أنها قصة شعرية بارعة، وأكاد أقول إنها من أروع النماذج (المثالية) في الشعر العالمي هذه الأيام.
ثم تراه يقول في القصة نفسها بعد ذلك:

والنور تضطرب الظلال به اضطراب العاشق.

كقوامها الساجي على هذا الفراش الخافق
فسألتها الغفران والأضواءُ تضحك من سؤالي
لكنها كانت يدينا للوصال وللخيال!

دائماً النور والظلال. . فهو هنا تضطرب الظلال به اضطراباً رشيقاً، مثل قوامها الممدود على الفراش. . . ثم هو يسألها الغفران فلماذا الحديث. . . (الأضواء تضحك من سؤاله). . . يا للروعة في

التصوير. . . ! الأضواء تضحك وتسخر. . قلت لك إن الرجل يعنى بالنور كثيراً، وها نحن نراه يتفنّن في الكلام عنه. . . وهو يقول في أغنيته (الفنان) وهي من أروع الشعر القصصي الجديد:

وقد أدري ولا أدري سناها في ذراعيّ
سناها نعمة الدنيا هواها يبدع الحيّا
أشمُّ عبيرها الفتّان في سكر يحيرني
وأشرب هذه الألوان من نورٍ يداعبني
أطلّي يا حياة الروح من عينيّ تحييني
شرابي منك أضواء وفوتي أن تناجيني!

هنا نرى سناها في ذراعيه، أجل سناها الذي هو نعمة الدنيا. .

وهو يشرب الألوان من نور يداعبه. . يا له من وصف بارع للقبلة يضع الشاعر في مصاف الخالدين من الشعراء. .

وأشرب هذه الألوان من نورٍ يداعبني

ثم هو يرجوها أن تطل في عينيه فتحيّيه. . . وكيف لا وهي حياة روحية؟ فهو يشرب منها الأضواء. . . ويقتات بالمناجاة. . . يا للروعة. . . ! هل هذا شعر عربي؟ هل هذا كلام يقوله مصري؟ لقد كدت أتهم حواسي وأخطىء فكري وبصري. . . ولكن إما أبو شادي قد أضاف حقاً هذا العنصر الجديد إلى شعره، وتكلم، عنه بهذه الكثرة وهذه الفتنة والدقة في التصوير مما لم يسبق له مثيل في هذه اللّغة، فقد حقّ لنا أن نطمئن على مستقبل الشعر في هذا البلد بل في البلاد العربية، ووجب علينا أن نؤمن برسالة أبي شادي الجديدة.

وهو يتحدث عن الظل أيضاً بما لم يعهده الأدب العربي من قبل، فتراه في «شاطىء الأحلام» يقول:

ومُنىً من الأحلام ترقص حولنا ومن الحقيقةِ ما حكاه الظّلُّ

أيُّ ظلٍّ هذا الذى يحكي الحقيقة؟

إن العين المجرّدة والفكر الساذج العادي، لا يمكنهما أن يلمسا هذه الحقيقة التي أحاط بها ذهن أبي شادي الجبّار. .

وانظر إليه كيف يتلاعب بالظلال هنا تلاعباً فنياً رشيقاً في قصيدة «في المعبد»:

في الهيكل المصغي إليها رهبةً حتى الظلالُ به وقفن ظلالا!

ويقول في «ميلاد الربيع» وهي قصيدة ارتجلها أمامي في مناسبة خاصة:

وأتتْ به الأيام كالأطياف من حصنٍ مَنيعْ!

أي عالم سحري هذا الذي يعيش فيه ابو شادي. . . لكأني به وهو رجل المدنيّة الحديثة، الواقف على أسباب الحضارة الراهنة، يعيش في عزلة أكيدة، في حصن او في دير، لا يعاشر سوى الأطياف ولا يتخذ من دونها أصدقاء.

واعتقد أنني لو سرت معك في تتبع ما قاله الشاعر في ديوانه عن «الأطياف» لما كفتني رسالة كاملة، وأجدر بك أن تطلع على جملة الشعر في ديوان «أطياف الربيع» فترى كما رأيت أن الرجل قد أبدع الإبداع كله في رسم الأطياف رسماً أجد في نفسي الجرأة الكافية على التصريح بأنه الأول من نوعه في اللّغة العربية، وحسبي أن أجعل من هذه الدراسة مساهمتي في التعليق على المحاضرة القيِّمة التي أعدها الأستاذ محمد عبد الغفور تحليلاً لأدب أبي شادي الذي يعلن «أن الحياة أشعة وظلال»!.

والذي آراه أن الشعر العصري عندنا قد تطور جداً فهو ليس كالشعر القديم من حيث عبادة اللّفظ، والحرص على البديع

والمحسنات اللّفظية، ولكنه شعر مملوء بالمعاني القوية الرائعة.. شعر يتعبك حتى تصل إلى معانيه القوية الجزلة... شعر لا ينظم للتسلية وتزجية الفراغ، وإنما ينشد للتعبير عن حالات نفسية قوية، ولحل مشاكل اجتماعية عديدة، بل هو شعر يتكفل شرح بعض النظريات العلمية العويصة في خيال رائع... وأحبُّ أبو شادي أن يمثل هذه المدرسة المجدّدة في الشعر خير تمثيل، والذين يخالفون المجدّدين في الشعر كالذين يخالفون المجدّدين في أي شيء آخر سواء بسواء، يصرخون ويأبون الشيء الجديد، ولكن الحياة تأبى إلا المضي في سبيلها، فلكل قوم تقاليدهم ولكل جيل تفكيره، وهؤلاء لا يعتمون حتى يسدل عليهم النسيان ستاره العنكبوتي إذا لم يسارعوا إلى اللحاق بالمجدّدين وقبول آرائهم ومحاولة تذوق أدبهم الذي يعبر في صدق عن شعور الجيل ويردّد صداه.

فإن كان لنا أن نفتخر بديوان «أطياف الربيع» فغاية فخرنا أنه يمثل اللون الذي ننهض بدعوتنا من أجله، وننادي دائبين في سبيل تحقق نجاحه في الشعر العربي، وليس هذا النجاح عزيزاً ما دمنا نكافح في سبيل المبدأ الذي ندين به، وما دمنا نساير القافلة ولا نتأخر عن صفوف المجدّدين.

١٦ ـ السخط على البيئة في شعر أبي شادي:

الآن وقد انتهيت من قراءة معظم شعر الدكتور أبي شادي أستطيع أن أقول ـ لا بل أجزم ـ أنه سيخرج لنا بعد عامين أو ثلاثة على الأكثر ديواناً لا نلمح به أثراً للحب والجمال، وكم طغيا على شعره طغيان السيل الجارف! وقد رأيت أن أتناول بالنقد هذه الناحية التي لم يتناولها الأستاذ محمد عبد الغفور في محاضرته بل ذهب إلى عكسها

كما ذهب الأستاذ الصيرفي في تعقيبه على ديوان (أطياف الربيع) راعني منه أن كنت أرى في دواوينه الأوائل تفانياً في الحب وفلسفة الحب البحت، وقلما تعدّى هذا الموضوع إلى غيره من أمور الحياة الاجتماعية ثم راعني أن أصبحت أرى هذه الظاهرة تضمحل في شعره وتنعكس الآية في نفسه حتى كدت أقول إنه أصبح شيخاً يتورع عن هذه الظاهرة وهي التي تسود عادة شعر الشباب لولا أنني أعرف الرجل وأعرف أنه لم يخض غمار الشيخوخة بعد! فتساءلت نفسي عن سر هذا التدرج التنازلي من ناحية كم ملكت نفسه وسيطرت عليها، إلى أن اهتديت إلى ناحية أخرى في نفســه وجهت شعره إلى تــدرج تصاعدي للون من ألوان الحياة الاجتماعية فالرجل يمعن في الجهد إلى حد الإجهاد، والرجل ينظر إلى الحياة المصرية فلا تعجبه على اختلاف بيئاتها ـ وجدها ساقطة من ناحية الأدب فأخذ يهيّىء جواً صافياً ليعيش فيه الأدباء تحت سماء البراءة ـ ووجدها ساقطة من ناحية الشعر فأخذ ينشيء مدرسة يهذّب فيها نفوس الشعراء ـ ووجدها ساقطة من ناحية الاقتصاد فأخذ يعالج النواحي التي يجب أن تتجه إليها الجهود الاقتصادية في هذا البلد ـ ووجدها ساقطة من الناحية الصحية فعكف على خدمة المرضى، مرضى الجسوم بعد أن عالج مرضى النفوس ـ وإذا كانت هناك ناحية أخرى فاته علاجها ـ ولست أدري ما هي ـ فمن يدري؟ ربما خلق حركة جديدة ليتم بها رسالته المتشعِّبة التي يفنى في سبيلها.

ولعل صاحبنا في بدء حياته كان موفقاً فيما كان يرمي إليه، وذلك لأن جهوده لم تكن ظاهرة ولم تكن محسودة ـ وذلك على ما أعتقد ـ وجّه شعره نحو الجمال وعبادة الجمال وافسح له من وقته مكاناً للحب فصبغ شعره بصبغته.

واستمر صاحبنا يواصل جهوده المتباينة إلى أن ظهرت آثارها فحقد عليه الموتورون والبدلاء وعملوا على محاربته فرآهم يعيشون فساداً في كل ناحية ولجها ورآهم يكيدون له ويضعون العراقيل في كل درب سلكه. ومن هنا بدأ الرجل يقاوم هذه المقاومة ويوجه جهوده نحو تذليلها وإصغارها مما أضعف في نفسه الحب وعوامله وملأ قلبه بالسخط على هذه البيئة الجانية، فإذا هو لمح ابتسامة بريئة شاذة عن الوجود الحاقد عاد قلبه إلى صفائه الأول فأغضى وعفا عن زلّة الحاقدين، أخذ صاحبنا كما قلت يخفّف من لهجة الحب في شعره ويعدد جنايات البيئة ويعمل على إصلاحها بكل ما أتاه الله من قوة هي قوة القلم. وهكذا بدأ في تدرجه التصاعدي نحو السخط على البيئة: فتراه يبدؤه في بعض دواوينه الأولى بقصيدة أو اثنتين عن هذه الناحية وتراه يقف الآن في ديوانه الأخير (أطياف الربيع) وفي يديه نحو ثلاثين قصيدة ساخطة لهذا الديوان وحده:

والآن أحدث القارىء عن شعر السخط في ديوان (أطياف الربيع) ويبدؤك صاحبنا بقصيدة «الفنان» ومطلعها:

أماناً أيها الحبُّ ... سلاماً أيّها الأسى
أتيتُ إليك مشتفياً ... فراراً من أذى الناس!

فانظر كيف يمضي صاحبنا لحظة في هيكل الحب ليستريح من عناء ما يلاقي من الناس؟ أم هو الحب الذي يشفق عليه فيدعوه لحظة ليستريح من هذا العناء فيقول له:

حنانكَ أيها الداعي ... فأنت مليكُ أنفاسي
فررتُ وحوليَ الدنيا ... تحارب كل إحساسي

تشعّبت جهود الرجل كما قلت فكان له في كل شعبة جمع يحاربه،

ثم ما لبثت أن توحّدت هذه الجموع لتنقض عليه، فيقول للهيكل.

فررتُ إليه مِنْ سجن فرارَ المذنب الثائرْ
وهذا الدهرُ يتبعني بجيشٍ حانقٍ زاخرْ

عجبي له إذ يقول إنه يفرّ (فرار المذنب) وهل هو أذنب؟ كلا! ولكن العاقل في دولة المجانين مجنون وهم العقلاء، والبريء بين المذنبين مجرم وهم الأبرياء! حتى الخواطر والأحلام لا تروم للرجل منجاة من العذاب في حين أن غيره يجد من أحلامه عزاء لآلامه، فاستمع لقوله:

فما لخواطري الحيرى تروم اليوم تعذيبي؟
وما لي أشهد الأحلا م كالأيام تغري بي؟

وكان صاحبنا موزعاً بين تنازع الحب والبيئة، فإذا هدأت ثائرة ذاك لم تهدأ هذه، وإن هدأت ثائرة هذه لم يهدأ ذاك! هدأ حبه مرة فاستراح إليه هاجراً حقد تلك الجموع وما تنطوي عليه نفوسهم، وراح يردّد وهو في معبده:

أحقاً نلت ما في الخلد من معنى وإحساسٍ؟!
فيا لنعيمي الوافي وإن شُرِّدْت في الناس!

هنا يعترف الرجل أنه أصبح شريداً في الناس، محارباً منهم، مضطهداً عندهم، فهل هو سعيد في حبه؟ وهل هو منعم لديه؟ هذا ما لا أجيبك عليه، وهذا ما أعتقد أن صاحبنا ليس متأكداً منه فهو يقول: (أحقاً؟) ويرتاب! ويقول: إن كان حقاً أنه نال حظاً في حبه فيا لنعيمه الوافي وإن شرد في الناس. وإذن فهو يرضى بنعيم الحب وعذاب الناس، وأكبر ظني أنه معذب من كليهما ولكنه يطمئن إلى الحب أكثر مما يطمئن إلى الناس، فالناس دوماً في حرب معه بينها

الحب يتأرجح عنده بين العطف والقسوة فيقول:

أهـذي غـايـةُ الحـب ففـي الحـرمـان تـعـذيبُ
وفـي الإحـسـان تـطـبـيبُ فـتـعـذيـبٌ فـتـطبـيـب

ولكن ما الذي جنى على صاحبنا وطوّره كل هذا التطور؟ هما اثنان عقله ومهجته الحيرى، ذلك جنى عليه عند الناس، وهـذه جنت عليه عند الحب، فجعلته يشك ويتألم من هذا الشك فيقول:

فـما لي لم أعش غـداً غـبـيـاً أقـتـل الـفـكـرا
والـقـى الحـبُّ مـبـتـسـماً وأدفـن مـهـجـتي الحـيرى!

ثم ألم أقل لك إنـه يسخط على النـاس حتى إذا لاحت له ابتسـامة تناسى ماضي السخط ونظر إلى الحياة بعين جديدة مبتسمة. إنه كذلك في حبه يتناسى حرمان الماضي بلقيا الحاضر ويبني عليها أملاً للمستقبل فيقول:

وأصـفـح عـن أسى المـاضي وإن ضـحـى مسراتي
فـهـذي نـعـمـة المـاضي أتـت مـن نـعـمـة الآتي

وهو لا يحارب البيئة لأنها تحاربـه ولكن لأنها تحارب جهـوده وتقاوم رسالته، ثم هو ينسحب من الميدان ليشرف على الحياة فيرى الشهوة والأنانية تجعلان التناحر بين النـاس ديدنـاً، ويرى الحزبية والانتـماء للعصبيات وموت المبادىء الحرة والميل إلى الصوالح الشخصية سيفاً يحز في رقبة البلد واستقلالها فيصرخ ولكنـه لا يرى تجـاوباً بـين روحه وروح القوم وينادي فلا يجد ملبياً لندائه؟

وهو في قصيدة (اليأس الساحر) يظهـر لك كـل هذه الخـواطر التي تختلج في نفسه فيقول:

وطني العزيز بكيتُ حظَّكَ حينما خذل البنون مَنَاكَ خذل الفاجرِ

تخذوا التنابذ ديدناً وتفرقوا
جرحى التخاذل تحت جيشٍ ظافرِ

لولا تنابذهم لأذعن بأسه لهمو فإن الحزم أبلغُ ساحر

ومن الأبيات الآتية تلمح الصرخة التي حدثتك عنها:

والآن يا وطني الذليل ألا فتىً جمّ البطولة مستقلُ الخاطرِ
يقضي على هذا التنابذ ضارباً بعواملِ التفريق ضربةَ قادرٍ؟!
إنا بعصرٍ للتعاون وحده حين التعاون قاهرٌ للقاهرِ

ينشد الفرد المستقل الخاطر الحر الرأي ولكنه لم يخلق بعد! تلك الصرخة التعاونية جاءت ضمن رسالته، فهو لا يهتف بها مرة واحدة لأنه يشفق من قرعها لسمع القوم مرة تتلاشى بعدها في الهواء فهو يردّدها مرة أخرى في قصيدة (سماسرة الهوان) فيقول:

وطني نُكبتَ بكلِّ غرٍّ نافخ في شعلة الحقد المدمِّر لا يني
كلّ يحقّر نِدّه، وكأنما المجد أن يؤذي أخاه بمطعنِ
فإذا التعاون مسبّة وجريرة وإذا التنابذُ مثل داءٍ مزمن

وهكذا تتشبّع روح أبي شادي بنظام التعاون الذي خبره في الزراعة فيأبى إلاَّ أن يحمل هذا النظام على التدخل في كل النواحي الاجتماعية وكم يسوؤه إلاَّ أن يرى أثراً له، ولكنه يرى التشيُّع والحقد والإيذاء لا تزال ديدناً لمن يسميهم سماسرة الهوان الذين يصمُّون آذانهم حين يقول عنهم:

لولا سماسرة الهوان لما غدا هذا الهوانُ ينال عزة موطني

ولو عرفت أبا شادي في سجنه الاختياري لأشفقت عليه، هو في سجن يبرز له من كل حائط فيه سكين يود لو يطعنه، ولكنه مخير.. كما أنه مخيرافي خروجه كبح لنفسه الكبيرة الثائرة.

وإذا كانت النفوس كباراً   تعبت من مرادها الأجسامُ

والكل يعرف أن صاحبنا يمارس ألواناً من الثقافة منوّعة وما على الله بمستبعد أن يجمع العالم في واحد! وهو مؤمن بعمله إلى حدٍّ بعيد، ولذلك فهو لا يتزعزع ولا يميل ولكنه يستاء ويمتعض حبراً على ورق فحسب! وكم من مرة يندب حظه الذي جرَّ عليه هذا الحقد وهو أزهد الناس في الحقد، فيقول:

أتناول الحسراتِ كأسَ مدامتي   والحظُّ يخطو عاثراً ويدبُّ

حتى الحسرة أصبحت خمرته كما عثر الحظ وطالت عثرته!.

صاحبنا شاعر مطبوع، ومتخيِّل مفتن، ومطلع واسع الإطلاع، ولكنهم يأخذون عليه إكثاره إذ إنَّ له من الشعر ما لم يتح لشاعر في القرن العشرين ولكن هل يعيبه هذا الإكثار؟ وهل هناك وجه لحكم الحنابلة عليه؟ لا أعتقد بل أعتقد أن الفرق بينه وبين غيره من الشعراء هو أن عنده مادة ومادة غزيرة!.

فالشاعر كآلة الطباعة إن وجدت (الأصول) صورتها وعددتها وإن لم تجد فإلى الصمت والسكون! ومن جهة أخرى نرى أن في الحديث السائر كثيراً من الشعر الذي يتحد مع الشعر الذي يكتبه الناظمون من قوة العاطفة، وأبو شادي يؤثر أن يسجل عاطفة الحديث الذي يقوله عن عاطفة في هيئة شعر منظوم، فهل بعد هذا يجد الحنابلة مجالاً للحطّ من قدر شعر صاحبنا بادعاء الإكثار؟.

هكذا يحارب أبو شادي، وأشد الكماة عليه هم الحنابلة المنتسبون إلى الأدب فهل يأبه بهم؟ كلا فإنه يكتب (لنفسه ثم لمن له نفسه) على حد تعبيره:

شعري لنفسي، ثم بعدُ لمن له   نفسي، وليس بما يُباع ويُقْتَنى!

والذي لهم نفسه والحمد لله خلاصة طيبة بريئة. . . يقول للحنابلة في مقطوعته (قصيدتي الكبرى):

أنا لا ألوم الغافلين إذا أبوا شعري وعابوا روعتي ورواتي
هل يدركون قصيدة لعواطفي وهم الذي أبوْا قصيدَ حياتي
أحيا لغيري، والدقائقُ ملؤها نغمي وملء دموعها آياتي
فقصيدتي الكبرى حياتي كلها وأقلها شعري وهمُ عداتي!

فلسفة وأي فلسفة! أمن ينكر كليته يستحل جزئيته! أجل. . إن حياة صاحبنا ملحمة كبيرة بل هي دراما عنيفة وما الشعر إلاّ ناحية من نواحيها المتعدّدة المتشعبة!.

ثم يختمها بقوله:

إن لم يُصِبْ نَغَمَ الصخور فحسبه سمعٌ من الأربابِ والرَّبات!

فلتسدّ الناس أسماعها ولينطلق هذا الشعر نحو الأولي ليشجي معاشر الآلهة هناك. . . !.

وصاحبنا مع ما يلاقي في الأرض من غبن يحب الحياة عليها ويحب ما وكلت إليه الحياة من أعمال النحل والدواجن والزراعة والشعر فيقول في قصيدة (أمّنا الأرض):

ما النحل؟ ما هذي الدواجن كلها
والغرس إلاّ الشعر ملء حنيني!
والناس تعجب من تَوزُّع خاطري
وهو الموَحَّدُ فيك غير غبين
أُمّاهُ: موئلُ كنّ لبُّ شاعرٍ نجواكِ فهي مفاتني وفتوني!

* * *

ولو قد أعار الهم ما يعيره مثلي ومثلك من المكان في النفس لغلبه اليأس فانتحر، ولكنه يمزج كأس الهم بقليل من المعسول فيشرب

ويستمرىء ما يشرب أمام الناس، ولكنه في نفسه ينكر هذا المزاج ويعلم ما فيه فيقول:

إني الفتى الباكي الطروب وما درى قلب مجال تألمي وجراحي
ولو استطعتُ حجبت عن ربي الذيْ عانيت في الأحزان والأفراح

فهو يحجب همه عن الناس ويكتمه في نفسه ولا يود أن يظهره حتى إلى الله ولكنه لا يستطيع! ويقول عن هذه المواربة:

هذي حياتي كلها تعبٌ على تعب، وأتراحٌ على أتراحِ
وكأنني جاوزتُ خلجانَ الردى بسفينتي فنعمتُ بالأقداحِ
والدهرُ يعلم أنني في نشوتي في قبضةِ الجرّاحِ والسفّاحِ!

* * *

ما أظلم صاحبنا في هذه الدنيا التي لم يخلق لها! ودّ لو عاش في عالم آخر وبين ناس آخرين لا يجرمون ولا يحقدون ولكننا ندخل هذا الزعم تحت طي المثل العليا التي يكونها الشعراء ولا يجدونها فهو في ليله وهي الأونة التي يهجر فيها ظلم البشر ليخلق كوناً من الخيال يمنيه ويواسيه ولكن أين يكون هذا الكون؟ وهل هناك من كون غير الحياة إلّا الموت؟ وهل يجد في الموت جواباً لرجائه؟ هو يقول ذلك ويسائل فاسمع له:

وما الليلُ إلّا محبسي، وتطلعي إلى عالمٍ نائي الحدودِ نزيهِ
إلى عالمٍ لا تشعر الروحُ عنده بحَرْبِ خصيمٍ أو بجرمِ سفيهِ
وما خُلقَتْ نفسي لدنيا كهذه وإن عابَ هذا الكونَ لؤمُ ذويهِ

ولو أُطلِقَت منها لما شارفَتْ سوى فناءٍ، فهل كان الرجاء يليه؟

* * *

ثم يعبِّر لك صاحبنا عن هذه الشخصية التي تحاول أن تنال منه بتعبير ظريف - هو ينسبها إلى الببغاوية التي تردّد ما تسمع ولا تعي ما تردّد!

والحقيقة أن الأدباء في مصر يعانون من الأبواق أكثر شراً مما يعانون من النقّاد، فقد شاء فريق - لا نحبّ ذكر اسمه ونحن في موقف النقد الأدبي لا التعريض الذي لا نحبه أن يحط من مكان شعر أبي شادي فنفخ في أبواقه التي راحت تردّد ما نفخ فيها في أحط الوريقات السائرة! وكم يحب أبو شادي أن يظهر النافخ يودّ أن يتوارى المنفوخ فيه فيقول للأخير:

البغاءُ تثور ضدي يا لها من غِرَّة فأنا الذي أخشاها!
باعدتُها جهدي، فإن مقالها كمقالة للسوء لا أرضاها!

ثم يقول لها:

سيّانَ مدحُكِ أوقِلاك فجنِّبي صوتاً كصوتكِ أن ينالَ خيالي

ولم يكن صاحبنا بالذي يأبه بها ولكنها تقلقه ظاهراً فحسب فيقول:

ما كان رأيك بالذي أعني به لستُ الذي يهفو إلى الأبواق
لكنَّ صوتَكِ في كآبةِ وقعِه قلقٌ، فما حظِّيِّ من الإقلاقِ؟!

* * *

ألم أقل لك منذ حينٍ أن صاحبنا يسخط ويتضجر، فإذا لاحت له ابتسامة بريئة أو لحظة هنيئة غفر وتسامح؟

ها هو يقول:

كم أملأ الدنيا ثناءً أو رضىً عن لحظةٍ للأنس والإسعادِ
وأنا الذي أحيا الزمانَ شقاؤه فأعود أغفر شقوتي وحِدادي

ثم ألم أقل لك إن صاحبنا يحب الحياة ولكنه لا يحب ما عليها من التنازع والتنابذ والتحزُّب؟ ها هو يقول:

إن الحياة جميلة، لكنما قتل الجمال تناحر الأضداد

* * *

البيئة لا تجني بلؤمها على فردٍ ولكنها تتعداه إلى الجناية على البلد - وما هو البلد؟ هو مجموع الأفراد، ولكن إذا اجتمع هذا المجموع ليحارب فرداً فإن ذلك مبالغة في الظلم - وصاحبنا محارب من المجموع جملة واحدة - فهل هو ناقم على هذا البلد؟ كلا! فهو حامل منه ما حمل عن رضى واصطبار، وما أشبهه حين يقول:

بلادي! بلادي! أنت في كلِّ حالةٍ بلادي، وإن لم تعبئي برغائبي!

يقول مَن قال:

بلادي، وإن جارتْ عليَّ عزيزةٌ وأهلي وإنْ ضنُّوا عليَّ كرامُ!

وكم من مهزومٍ مغبون نصره أبو شادي فراح هذا المهزوم المغبون يكيل له السب ويحمل له الحقد وأحسب أن ذلك ينطبق على مثل إنجليزي لبرنارد شو: «If pity is akir to iove, gratitude is akir to the other thing» أي أنه إذا كانت الشفقة طريقاً إلى الحب فإن الاعتراف بالجميل طريق إلى الكراهية، لأن المعترف بالجميل يشعر أنه مدين لصاحب الجميل، وهذه المديونية عبء على كاهله كم يودّ أن يتخلّص منه حتى لا يكون هناك تسامٍ وتدلٍّ «Superiority or

Inferiority» ـ وقد غمر صاحبنا الكثيرين بجميله فخلق له الكثيرين من الأعداء عن طريق غير مباشر! ويقول صاحبنا في ذلك: فجوزيت بإيلام من كل عاثرٍ.

فجوزيتُ بالإيلام من كلِّ عاثرٍ
أغثتُ، وبالحرمانِ من كلِّ صاحبِ!

وأريد أن أشيد بمعنى سامٍ ورد في شعر صاحبنا، إذ يقول:

كأن الجميع استوثقوا من محبتي وغالوا بيأسي مُذْ تغالتْ مطالبي
وما أنا في نفسي لأطمحَ مرة لأكثر من عيشي بعزلةِ راهبِ
ولكنْ طموحي للديار التي لها حنيني، وإن باتت ديارَ المصائبِ!

فالناس يعتقدون أن صاحبنا يرمي من وراء جهوده إلى نفعٍ لنفسه والحق أن مطالب الرجل تتناهى إلى وطنه فهو لا يريد لنفسه أكثر من عيش راهب معتزل ـ لا، بل الواقع أنه يعيش عيش الراهب ولا يطمع في أكثر منه، وأما البيتان الآتيان فليس فيهما أكثر مما قلناه في المواقع السابقة:

ولا بأسَ لي إلّا ضميري ومَبدئي ولا مجدَ لي إلّا خلوصُ مواهبي
وأكبرُ ذنبي همةٌ ما تراجعتْ
فلن يرهب الإيمانُ أقسى العواقبِ!

ويأبى في قصيدته (النفوس المريضة) إلّا أن يضمنها بيتين من شعر المتنبي يشكو فيهما ما طالما شكا منه صاحبنا وها هما:

إذا أنتَ أكرمتَ الكريمَ مَلَكتَهُ وإن أنتَ أكرمتَ اللئيم تمرَّدَا
ووضعُ النَّدَى في موضعِ السيف بالعلى
مُضِرٌّ كوضعِ السيفِ في موضعِ النَّدَى

ومن شعر أبي شادي في هذه القصيدة:

ونفسي التي تهوىَ حياةً بعيدةً
عن الحقد والآلام والكيد والعِدىَ
يعزُّ عليها أن ترى الشهمَ في الورى
طعيناً لمن أعطى الحياةَ لهم فِدَى

ثم يحدِّثك عن مرض النفوس الذين أهمل علاجهم بينما هالته كثرة المستشفيات في أنحاء البلاد لتعالج مرضى الجسوم؛ أم أنه يلوم نفسه ويتهمها بالتقصير في معالجة النفوس بينما هو مكبٌّ على معالجة الجسوم في معمله فيقول:

شُغِلنا بأمراض الجسوم وعندنا نفوسٌ بأمراضٍ تجاوزتْ المدىَ!

* * *

ويذهب صاحبنا إلى السينما فيشاهد رواية «المومياء» ويرى الميت يخلده الحب ثم لا يلبث أن يبعثه؛ بينما صاحبنا يرى أن الأحياء في مصر أقرب إلى المومياء فيقول:

أسيرُ وكم أرى في الناس حولي أسيراً حالُهُ كالمومياء
كأنَّ السحرَ جرَّده... ولكنْ يلوح به التعمُّقُ في الفناء
فأبصر فيه صورةَ آدمي وما ألقى به معنى الرجاء

ويعود إلى نفس هذه الشكوى في قصيدة أخرى عنوانها (مصر الحية) ومنها:

قد ساء حولي كلُّ ما ألقاه مِن موتَى الحياةْ
جُثَثٌ وأشباحٌ وأطيافُ العتاةِ من الجُناه
ومَهازلٌ للصاغرينَ، الطاعنِين المنقذين

العابثين الآثمين إلى الأبوة والبنين

ثم يحنّ إلى بنت النيل وسحرها، وإنها لعزاؤه في حياته:

يا بنتَ موطني الحبيبِ ورمزَهُ للأوفياء
لم يبقَ غيرُكِ للمحبة والطهارة والرجاء!

وفي قصيدة أخرى يسميها (سباق الأموات) يعود إلى التشاؤم ويشفق على مصر من نزعة الشهوة التي تأصّلت في النفوس فيقول:

لم يبقَ إلاّ أن يكفِّنَ بَعضُنا بعضاً وأن تتسابقَ الأمواتُ
ماذا يُرجّى بعد أن طعن الهوى روحَ الإخاءِ ـ وسادت الشهواتُ

ويعود صاحبنا في آخرها إلى صرخته الأولى فيقولها في استعطاف وشبه استجداء:

والآن يا أبناء هذا الوادي الآسرين عواطفي ووِدادي
الحاملين أمانةَ الأجدادِ هل تقدِرون نصيحتي ووِدادي
وتبدّدون تنافسَ الأحقادِ إنَّ الزمان لكمْ بالمرصادِ!

ويحه! ماذا يقول؟ الآسرين عواطفه وفؤاده؟! مسكين... بعد كل هذا الطعن من أبناء بلده في جسده ونفسه يقول إنهم يأسرون عواطفه وفؤاده!.

* * *

وكيف اتفق لهم أن يأسروا عواطفه وفؤاده وهو الذي يقول فيهم في قصيدة (الناقمون):

الناقمونَ! نَعَمْ! لكمْ أن تنقموا كم يُفقد المتعلمين مُعَلِّمُ!
ذنبي وُجودي في مجاهِل بيئةٍ صحراء جاحدة تُضلُّ وتُسعمُ
مهدتُ مِنْ هذي المجاهل مثلما علّمتكمْ بالأمسِ ما لم تعلموا

فَرُجِمْتُ بالحسدِ العنيف كأنني فيما أجود به أنالُ وأغنم

أسفاً على وقتٍ أضعتُ ولا أسىً!
مهما شكوتُ فلستُ مَنْ يتندَّم

مَن ذاق مهزلةَ الحياة فإنه
يُعطي ويسخر مِن تجاهلِ من عَمُوا

يُعطِي ويأبىَ أن يُدانَ، وإنْ يكنْ
يُنْسَى له الفضلُ الرجيحُ ويُرجَمُ

وبكلِّ آنٍ صدمةٌ لشعورهِ وبكلِّ يومٍ للعواطف مَأتمُ!

فهل تراجع صاحبنا أمام هذه الصدمات؟ الجواب بالنفي! وهل حمل لهم صاحبنا مثل ما حملوا له من الحقد؟ الجواب بالنفي! عجب واي عجب وما أجمل قوله لغاندي:

تصوم مكفِّراً عن إثْم دنيا يسيرُ بها القويُّ على الضعيفِ
أبتْ إلّا الجنونَ بكلِّ عصرٍ فما أدنىَ السخيفَ إلى الحصيفِ!

بل أرى أن صاحبنا قد انتقص الحقيقة وكان حقاً عليه أن يقول في هذا الزمن (فما أعلى السخيف عن الحصيف)!.

جاء في الحديث «من رأى منكم منكراً فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان». ونحن توسطنا فغيرنا ما رأيناه من هذه البيئة الجاحدة بلساننا، ثم سجلناه في هذه العجالة بقلبنا، ونأمل أن يغيره القرّاء بقلوبهم على الأقل.

١٧ ـ الشخصية في شعر أبي شادي

لم أعنَ بمطالعة شاعر عربي في ديوانه قدر ما عنيت بمطالعة أبي شادي في «أطياف الربيع»، ولعلني لا أستطيع أن أرد هذا إلى إعجاز فني وقفت عليه في كثير من قصائد هذا الديوان قدر ما أستطيع أن أرده إلى ناحية تكاد تطبع كل قصائده بطابع لم يسبق إليه في الأدب العربي الحديث، بل أستطيع أن أؤكد أن أدبنا الحديث إن كان ينقصه جانب فني مستقل فهو هذا الذي سدَّ فراغه أبو شادي في ديوانه الأخير. فأما هذا الفراغ الفني الذي سدّه أبو شادي فهو الشخصية الأدبية. والذين يعرفون أبا شادي معرفة شخصية يستطيعون أن يروا أكثر كيف أن أبا شادي في ديوانه هو نفس أبي شادي هذا المعروف إليهم. لم يتوارَ عنهم في ديوانه في قليل أو كثير مما عرفوه منه من خلق ومن عقيدة ومن تكوين شخصي مستقل هو أظهر ما في أدبه وشخصيته معاً.

يرى الأستاذ مطران أن الدكتور أبا شادي «قرأ الشعر عربياً فأشجاه، وقرأه إفرنجياً فأشجاه، وطالع التواريخ ومنها بخاصة أصول الأدب الأغريقي، وقارن بين متباين المذاهب في البيان: سواء كانت تلك المذاهب خيالية وجدانية موضوعية لا تعدو حكايات حال عن نفسه كما هي في لسان الضاد، أم خيالية وجدانية موضوعية أساس الخيال فيها بناؤها على الحق أو الواقع أو ما يشبه بهما كما هي في اللّغات الإفرنجية، وعلى أثر هذه المطالعات وجد أبو شادي في نفسه باعثاً شديداً على وجهة فنية جديدة يوليها شطره، فأحدث في العربية شعراً سلساً بألفاظه، قريب المأخذ بسهولته سلياً جهد ما تتسع المعاني العصرية...».

وبيني وبين الأستاذ مطران اختلاف شديد في بواعث الاتجاه الفني الذي أحدثه الأستاذ أبو شادي في العربية. فهو يرى أن المطالعات المختلفة للآداب الفرنجية والعربية قد أوحت إليه بهذا الاتجاه الفني الجديد، ولو أن هذا صحيحاً لرأينا في أدبه صوراً مختلفة لهذه الأدبيات المختلفة التي قرأها، فأما أدبه فهو صورة لنفسه بما فيها من إلهام ووجدان بل حتى لتكوينه الإنساني بما فيه من لحم ودم، فليس مطلقاً لهذه المطالعات أثر في تكوين هذه الشخصية الأدبية المستقلة.

وأستطيع أن أقدر مستنداً على المعلومات التي وصلت إليّ عن المراحل الأولى التي قطعها أبو شادي في مستهل تكوينه بأن المعنى الذي يعنيه الشاعر العربي:

نَفْسُ عِصَامٍ سوَّدت عِصَامَا وعلَّمْته الكرَّ والإقدامَا

إنما هو المعنى الذي يظهر أثره في أدب أبي شادي ظهوراً كان نتيجة لهذا الذكاء العبقري وهذا الشعور المتوقّد الذي صيّر من صاحبه شعلة أدبية عالمية مستقلة في كيانها الأدبي كل الاستقلال.

وحسب المطالعات الأدبية إن كان لها من الأثر في هذه الشعلة ما للريح في استثارة الضرام المستعرة واللهب المترامي الشرر، فأما أن يكون لها وحدها كل الأثر في تكوين الاتجاه الفني الذي يتجهه الدكتور أبو شادي في شعره فهذا ما أختلف فيه مع شاعرنا الجليل الأستاذ خليل بك مطران.

لكن هناك شيئاً أريد أن أنبّه إليه في كلمة الأستاذ إبراهيم المصري في شاعرية أبي شادي فهو يرى «أن الفارق بين الشاعر والإنسان العادي هو أن الأول يستطيع أن يعبّر للجميع عما يحس، أما الثاني

فلا يعبِّر عنه إلاَّ لنفسه، ثم لأقربَ المقرَّبين إليه مدفوعاً بعامل الحياء الوجداني الفطري الذي يفرض علينا كتمان عواطفنا وعدم الإفضاء بها إلاّ لمن يقدِّرها ويفهمها. فالإنسان يخجل من فتح قلبه للآخرين، وأما الشاعر فيعرض هذا القلب في غير تبرم ولا استحياء. . . إلى أن يقول «ولذلك فإن جميع الناس شعراء وإن أوضعهم شأناً وأضالهم عقلاً وأحطهم نفساً وإحساساً قد يتنكّر علينا متى عصفت به الأزمات، فيستحيل إلى رجل آخر يسمو في خياله وتعبيره وشعوره إلى أعلى مراتب الشاعرية».

والأستاذ المصري مصيب في هذا الأمر إلى الحد الذي يرى فيه أن الشاعر الذي «يتحدى المجتمع ويجبه العرف والتقاليد ولو ذهب آخر الأمر ضحيَّة هذا الطيش المقدس!» بينما هو يختلف مع رأيه هذا كل الاختلاف عندما يرى أن هذا الشاعر الذي يجبه التقاليد والعرف ويتحدّى المجتمع، ويقف له، هو والإنسان العادي سواء بسواء شعوراً بالحياة وإحساساً بنواحي الخير والشر فيها، حينما يقف هذا الإنسان العارف عالة على شعور هذا الشاعر فيحس بإحساسه ويخضع لقلبه ويرى أن الحق والجمال، هو ما يرى الشاعر من الحق والجمال.

هذا الإنسان العادي، يراه الأستاذ المصري مستطيعاً أن يحس لنفسه بمواطن الحق والجمال في الحياة، وإن كان لا يستطيع أن يترجم عنها، والشاعر هو الذي يستطيع أن يؤدي هذه الترجمة وأن يكون صريحاً فيها وعندما يكون الفارق بين الشاعر وبين الإنسان العادي هو هذا، أصبح الناس في رأيه جميعاً شعراء لهم إحساس الشاعر وعقيدته! .

ولكن! أيستطيع الكاتب الفاضل أن يتصوّر رجلاً يحتبس في صدره كل إحساسه فلا يستطيع أن يترجم عنه؟ كيف يعيش هذا؟! أو كيف يمتد الفارق بينه وبين هذا الشاعر الذي يجبه التقاليد والعرف ويتحدّى المجتمع؟.

الواقع أن الشاعرية هي القدرة على الإحساس بالحياة والنفاذ إلى أعماقها عن طريق المنطق والعقل، وصياغة هذا الإحساس حتى ولو بأعواد الرباب، ليستطيع الإنسان أن يتعرّف إلى نواحي الحق والجمال فيها. فأما أن الناس على درجة واحدة من الإحساس بالحياة وتعرف هذه النواحي فيها فهذا ما أخطأ الأستاذ المصري التوفيق فيه: فقد يعيش جيل بأكمله بآراء مشرع واحد، وقد يستطيع شاعر واحد أن يترك أكثر من عصر واحد متأثراً بإحساسه ومقاييسه الأدبية كما استطاع شكسبير وغيره من الشعراء العالميين.

ولكن متى إذن يوجد الشاعر؟ عندما يحس بإحساس يختلف وهذا الإحساس الأدبي المعروف، فيجبه إذن العرف والتقاليد ويتحدّى المجتمع في كل ما أحسه المجتمع من نواحي الخير والجمال فيها.

فالفارق إذن بين الشاعر والإنسان العادي هو في الإحساس بالحياة، لا في المقدرة على الترجمة عن إحساسه فقط.

مثل هذا الرأي الذي يراه الأستاذ المصري شائع جداً في مصر والشرق، ولذلك فإننا نجد شعراء وأدباء، هم أكثر عدداً من الشعراء والأدباء في الأمم الأجنبية الأخرى، فإذا قرأنا هؤلاء الشعراء وامضينا وقتاً طويلاً نتعرف فيه وحي الفن والجمال في أدبهم لم نخرج من كل من قرأنا لهم بأديب واحد أو شاعر واحد.

ولكنهم على حد هذا الأدب الذي يراه الأستاذ المصري يعتقدون

أن الشعر والأدب هو هذه الترجمة التي يختلفون في تلوينها وتظليل المعاني التي يسوقونها فيها، فلا ينقصهم إذن من أن يلبسوا مسوح هذه الجرأة التي يجبه بها الأديب العُرفَ والتقاليد، ليجبهوننا نحن بما أصبح مبتذلاً من هذه التقاليد والأوضاع الاجتماعية المألوفة وهم أدباء وشعراء من هذا النوع المعروف بالراديو الذي يسمعنا في كل حين أصداء المغنين والمغنيات في غير كلفة ولا استحياء من تكرار هذا التبذل الماجن في هذه الأدوار الماجنة.

يرى الدكتور ناجي أن الشعر يحتاج إلى غربلة، فهل يرى الأديب المصري أن هذه الغربلة يستطيعها غير الأديب الفنان وأن هذا الأديب الفنان ليس مطلقاً بينه وبين الإنسان العادي هذا الفارق الضئيل الذي يراه الأستاذ؟.

فما نقرأ من دواوين شعرائنا وأدب كتّابنا الكثيرُ مما لو عسانا رددناه إلى أصله لأصبح هؤلاء الأدباء والشعراء وفي يدهم بعد هذه العملية المجهدة من أدبهم القلم الذي كتبوا به والورق الذي كتبوا عليه وهذه القطرات من المداد التي صاغوا بها في أثواب جديدة آراء الأقدمين أو المعاصرين أو رأي الجيل نفسه، وتقاليد العرف بالذات.

فأما الإحساس الخاص الذي يستوحي منه الشاعر جمال الحياة وما فيها من فن وما فيها من دقة فهذا هو الذي يقبس منه شعراؤنا في تبرُّم وفي استحياء.

قد يدين الشاعر لرأي أو قد يبدو لعارفيه أنه يدين بهذا الرأي، وقد تظهر عليه مسوح متينة مختلفة من العقيدة والأخلاق، فإذا ما أمسك ببراعته سارت هذه البراعة وراء التقاليد المعروفة والتي لا يؤمن هو بالذات ولا بقليل منها، فشقت لها الطريق ووقفت كل مجهودها في

الدفاع وفي الذود عنها، وهكذا تستطيع أن تتحدث عن هذه البراعة كما تتحدثُ أسطوانات الحاكي عن المادة أدواراً معروفة أو طيبة السماع عند طائفة من الجمهور.

والأديب في مصر وفي الشرق وفي كل بلد متأخر إذا لم تسعفه الجرأة، ليقف بها في أمته فيبلغها رسالته ووحيه وإيمانه، استحال أدبه إلى أصوات تنبعث من الهواء وتذهب في الهواء ولكن أهكذا أبو شادي في أدبه وفي شعره وبخاصة في «أطياف الربيع»؟.

تحدث معي إلى هذه الأشعار التي اختار عنوانها «طلاقة الفن» ـ صفحة ١١٦ من ديوانه:

إن شئت خذْ ما أباح الفنّ من صوري
أو لا فدعها فإني الناقشُ الداري
هيهاتَ لي أن أصوغ الفن زخرفةً
فإن هذا غرورُ الواهم الزاري
هيهات أتركُ وقع الفن في خلدي
واستعيضُ بأنغامٍ وأزهارِ
إني أصب شعوري كيف أعرفهُ
مثل الأتي ومثل الجدولِ الجاري
ما كان لي نقضُ شيء من طبيعته
ما في الطبيعة لو أنصفتَ مِنْ عارِ
شعري أغاريدُ نفسي كيف أعرفها
أو لا فلبست أغاريدي وأشعاري

والحق أن البيت الأخير أدل على معنى الشاعرية من كل ما قيل فيها حتى الآن، والدكتور أبو شادي حين يستقيم أدبه على هذا

المعنى، إنما يشيد في الأدب العربي الحديث بناء الشاعرية، بعد أن كاد هذا البناء يحتفظ بعهده أيام المتنبي وأبي العلاء.

وإذا كان الأدب المصري لم يوجد بعدُ أديبهُ، فهذا أبو شادي في «أطياف الربيع» يرسم ألوانه الزاهية بين آداب الأمم المعاصرة، ولهذا النتاج ولا شك نصيبه من التوفيق والخلود، بقدر ما لكل عمل فني اتجاهه نحو الخدمة العامة والإحساس العالمي المستقل.

١٨ ـ نقد وملاحظات:

إن إنصاف الشعراء المعاصرين بعضهم لبعض غير مألوف حتى جاء أخيراً مجهود (جمعية أبولو) للتنويه بالمغمورين من الشعراء وللإشادة بأعمالهم في مجلتها أمراً غريباً يكاد لا يصدَّق في مثل بيئتنا، وقد زاد من قيمته عناية الجمعية بإظهار شاعراتنا المتواريات كسهير قلماوي وجميلة العلايلي. والآن لنرى ظاهرة جديدة طيبة من التجاوب بين شيوخ شعرائنا وشبابهم، وهذه الظاهرة من علامات الصحة المنشودة في أدبنا الذي ضاع الكثير منه سابقاً في مخاصمات طائشة لا جدوى منها للأدب.

إن محاضرة شاعرنا الكبير الأستاذ محرم مثال عالٍ للروح النبيلة الذي كثيراً ما حلم به الأدباء من التعاطف والتجاوب. هي صورة صادقة لنظرات وعواطف شاعر متفوق نحو زميل له يخالفه في مذهبه ويجانسه في نبوغه، وهي مثال للإنصاف الذي لا يتعارض واحتفاظ كل شاعر بشخصيته وآرائه الخاصة.

يقول الأستاذ المحاضر: «إن الدكتور أبا شادي حركة أدبية شديدة اليقظة، دائمة النشاط، تشغل قسماً كبيراً في موسوعاتنا الفكرية، وتحتل منطقة ممتازة من مناطق حياتنا العقلية، فنحن حين نكبر هذه الحركة أو نشيد بذكرها، لا نفعل شيئاً من ذلك تطوعاً أو مجاملة، ولكننا نفعله ونفوسنا مأخوذة بقوة قاهرة، وسلطان كبير»... وقد أصاب أستاذنا محرم في هذا الحكم على صديقه الشاعر بل هو حكم شائع مردّد، ولعل الدكتور أبا شادي نفسه يشعر بقوة نفوذه الأدبي بل

أجزم أنه يشعر به لأنك تلمح في شعره الحسرة اللاذعة من وراء هذا الشعور. . . أنه يعرف مواهبه وقوته الأدبية ويعرف نفوذه الفكري والعلمي في شتى النواحي، وهو يعمل وينجب بلا انقطاع مدفوعاً بوحي قاهر لا يستطيع مغالبته، ومع كل هذا يشعر بعدم الرضى عن جميع أعماله، وبالسخط على البيئة التي لا تساعده على استغلال مواهبه الاستغلال الأتم، بل تدعه يفنى به: الحاجة والعذاب والكفاح، متفرجة لاهية أو متبرعة بأمداح لا طائل من ورائها، بينما كل ما يعنيه بلوغ المثل الأعلى الذي يسعى إليه! ترى هذا الألم المحرق واضحاً لاذعاً في قصيدته «الجحود» ـ ص ٥٢ من ديوان (الشعلة) ـ وهي من أقوى شعره، وفيها يقول:

وكَمْ مغرق خصْني بالمديح تخيَّلْته مِثْل هاج يُغَالي
أفضي الحياةَ على غصةٍ وَأسْقَى الْهُمُوم عَلَى أيِّ حَالِ
ومَنْ لَمْ يطقْ أنْ يُبلَّ الصدى فَهَيْهَات يَغنى بنهر زلالِ
مرضتُ وقدْ بَخلُوا بالدَّواءِ وجَادُوا بأوْسمة لِلْمَعَالي!
وماذا انتفاعي بأمْدَاحهم إذا مِتُّ مِنْ حُرْقَةٍ وَاشْتِعَال؟!

فهذه الأبيات النارية زفرات مشتعلة من شاعر متفوّق، بل من قوة أدبية كبرى لم تعرف بعد الدولة ولا الشعب استغلالها بحكمة وإنصاف فذهبت معظم جهودها سدى، وبقيت طاقتها مقبورة وما زالت مقبورة، وصاحب هذه الطاقة يشعر بها في ألم ممض، ويستثيره المثل الأعلى الذي يتطلع إليه فيعاني العذاب بين ما يعانيه من القيود والجحود من ناحية وبين توثبه الذي لا يكلّ من ناحية أخرى، والخاصة يعجبون به والأصدقاء يصفقون له، ولكن كل هذا الإعجاب وذلك الاستحسان لا ينهض بأعماله الثقافية الجليلة خطوة

واحدة إلى الأمام، لأننا اعتدنا الأقوال والتهليل ولم نتعوّد بعد التساند العملي المفيد. إزاء هذا الشعور الأليم يقول أبو شادي في ديوانه (الشعلة) من قصيدته «موت وحياة» ـ ص ٢٤ :

دفنْتُ أسيفاً عَزْمَتِي وَمَوَاهِبِي
لدُن عدمن ذنبي همومي وَأَعْمالي
وَحَيّا أخِلائي جهُودِي وَمَا دَرُوا
جُهودي التي مَاتَتْ لِحُزْنِي وَإِقْلالِي
فَيا مَوْج مت حوَالي فموتك راحة ومَوْتك مرآة لموتِي وإذلالي

ومن الحق أن الدكتور أبا شادي ظاهرة منقطعة النظير في الثقافة العربية: فهو قوة مبتكرة مدهشة في نواح شتى من الأدب والعلم والفن وآثاره بعيدة المدى في كل مجال وجَّه إليه نشاطه، وقد انتفع بها الكثيرون انتفاعاً عظيماً، ولكنه انتفاع لقومه دون ما يشتهي هو أن يكون. ومن أجل هذا واجه أقسى حملات الحسد عليه من المغرضين والأنانيين وهي حملات لا تكتفي بالأقوال بل بين أسلحتها الدسيسة والعرقلة وشتى ضروب الإساءة، وتجد صدى كل هذا بارزاً لافحاً في شعر أبي شادي، فهو شاعر إنساني صافي النفس لا يملك أكثر من البث لآلامه إذا ملك غيره أن يقابل الأذى بالأذى. . .

زكي أبو شادي الذي يقول فيه الأستاذ خليل مطران:

أسمع فادِي وطن بنفسه وكلِّهِ
يفوقُ حبُّه له عِبَادة المؤلَّه

والذي يكاد لا يطرق النوم أجفانه، مسدياً منجياً لخير الأدب والعلم والفن ولخير الوطن والإنسانية، والذي يقول فيه الشاعر الفنان الدكتور إبراهيم ناجي (ص ١٣٧): «. . . هو شعلة حقاً، هو نور ونار، هو قبس حي، هو شعاع طوّاف متميِّز بالقلق، متفرِّد بالهداية، ضارب في مجاهل الليل مترام فوق عباب جيَّاش مترام، هو ألق

يـبـاهُــونَ بــالإيــذاءِ حــتّى كـــأنّمَــا
يـبـزُونَ في الهـيــجــاءِ (عـنــترة الـعبـسي)!
عـجـبتُ لـشـمس أشْرَقَت في سَـمَـائِـهـم
وَقَــدْ خَلَقُــوا حَــرْبَــاً عــلى النُّــورُ والشَّمْس!

حقيقة إنها لفضيحة أدبية لجيلنا أن يعاني مثل أبي شـادي ما يعـانيه من خـذلان وجحود ومحـاربة، ومـا يتبع ذلـك من عذاب وخصـاصة وإرهاق لا يحد. وإذا كان شاعرنا قد خلّد في شعره تقـديره لمن آزروه وأحبـوه، فهو إلى جـانب ذلك فـائض اللّوعة والبث إزاء من حـاربوه ونفّنوا في انتقاصه وإيذائـه فأساؤوا في الوقت ذاتـه إلى خير وطنهم، وسيبقى هـذا الجانب من شعـره كسحب كثيفـة وداء في سماء الأدب العصري وفي سيرة أهليه.

قلت إن الدكتور أبا شادي ظاهرة منقطعة النظير في الثقافة العربية وهو بسبب ذلك يذوق الحنظل من يد البيئة الحسودة الجاحدة كما ذاقه من قبل بيننا الموسيقار الفنـان المرحـوم الشيخ سيـد درويش . فمات ونحن في غفلة عنه، فلم نعرف قيمته الحقيقية إلا بعد وفاتـه. وفاتنـا الانتفاع الوافي به. ولو أن الدولة أو الأمة عرفت كيف تشمـل جهوده الرائعة برعايتها الصحيحة، وصـدّت عنه الفقـر والحاجـات الدنيـوية المعاشية، لكان لنا من آثار سيد درويش كنز عظيم للأغاني والموسيقى العربية. ولكن للأسف فقدنا الرجل، وقبرت مـواهبه في حيـاته، ولم نغنم إلاّ القليل من آثاره. وإني أتمنّى لشاعرنا العمر الطويل والجهـود الموفقة في النهـاية، ولكن أخشى أن تتكـرّر المأسـاة الآن نحو فنـان في الذروة من فنّه، نحو شاعر عظيم يسخ بالشعـر الصادق، وتـأبى بيئته

الغاشمة ـ أو أغرارها الأثمون ـ الإصابة وتعذيبه! وقديماً قال أبو شادي:

دَعْني أعِشْ غيرَ معروفٍ، فغايةُ ما
أجْنيهِ بالذكرِ أعدائي وحُسّادي

زكي أبو شادي شاعر فحل مستوعب للحياة، دائم التطلُّع إلى ما قبل الحياة وإلى ما وراء الحياة! وإذا تأمّلت جميع دواوينه وجدت هذه الروح متمشية فيها، لا تستطيع أن تخطىء معالمها، ورأيته يفيض بالشعر المطبوع، وكله من النسق العالي الممتاز. فلا غرابة إذا ثار سخط الحاسدين والجاحدين فتفنّنوا في محاولة انتقاصه والإساءة إليه.. وربما كان معيناً لهم ما تجده في شاعرنا من الوداعة الحقة والتسامح المتناهي، بل والمساعدة على الإصغار من نفسه بروح الصوفي المتجرّد، فيطمع ذلك غير عارفيه في التهجُّم على أدبه... وأنت إذ تجالسه لا تشعر أن شيئاً من ذلك يهمه، ولا أن الدهماء تعنيه بحال من الأحوال، وإنما كل ما يعنيه أن لا يعاق بشتى العراقيل دون بلوغ المثل الأعلى الذي يرمي إليه في خدمة الثقافة الإنسانية وفي التسامي بأدب أمته، ومن هنا نشأت حسرته على جهوده المضيعة وعلى مواهبه المدفونة. ومع الفارق في الأخلاق والطباع والاتجاهات، يكاد يعاني أبو شادي من الجحود مثل ما كان يعاني الشاعر الفحل ابن الرومي في عصره، ذلك لأن الشاعر المستوعب الشامل النظرات قليل الظهور بين جيل وآخر، فهو لذلك عرضة للإعجاب به وللاستهجان في آن، وعلى الأخص متى ظهر في بيئة جامدة ألفت لوناً واحداً من الأدب فلم تستطع هضم سواه، وكرهت ما عداه وإن يكن لذيذاً فاخراً!.

أقلب صفحات ديوان (الشعلة) فتكاد تستوقفني كل صفحة من صفحاته بما فيها من ألوان العواطف والخيال، وبما فيها من رسالة روحية سامية للحق والجمال. وتمر أمامي صور شتى من النماذج لشعر أبي شادي: شعره في صباه، وشعره في كهولته؛ فأجد فيها جميعاً روح الشاعر الإنساني المتصوِّف الحسَّاس، المفتون بالحياة والجمال فتنة المستمتع والزاهد في آن؛ هنا الشاعر الإنساني، والشاعر القومي، وشاعر الطبيعة، وشاعر النسك، والشاعر البوهيمي، والشاعر الفيلسوف، وشاعر العواطف الجامحة، والشاعر السمح الوديع، وشاعر التصوير، والشاعر الغنائي، والشاعر الدرامي؛ ذلك لأن أبا شادي يرسل نفسه على سجيتها، ويعتقد أن حرية التعبير النافذ مع الشخصية القوية والعواطف القوية هي أسس الفن، وهو يهب نفسه للفن ويندمج فيه كل الاندماج بشعره، فيخرج لنا ألواناً شتى من هذا الشعر هي في الواقع ترجمة حياته بلسان عواطفه، وهي صور التجاوب المتنوعة بينه وبين الحياة. هذا هو أبو شادي الشاعر الذي يعد إكثاره بمثابة إقلال نسبي، نظراً لتفاعله الوجداني المستمر ولشاعريته التي لا تهدأ. . فهو ظاهرة نادرة في الشعر العربي، سيعرف خطرها الكامل فيما بعد، ولن يضيرها بتاتاً ما يتناولها به الآن فقهاء النقَّاد المغرضين من المآخذ الواهية التي هي أبعد ما تكون عن تفهم روح الشعر وعن النقد الشعري الصحيح.

إن هذه الصفحات المعدودة لن تكفي بحال لأي تعقيب يراد منه تحليل نفسية أبي شادي وشعره ومواهبه وجهوده الأدبية في ربع قرن بل لا تكفي حق للإشادة الواجبة بديوانه الأخير «الشعلة» وإن كان الأستاذ محرم قد وفاه حقه من النقد. بيد أن لي بعض الملاحظات النقدية على هذا الديوان، وقد لا يخلو سردها من فائدة:

(١) يرى الأستاذ محرم أن الدكتور أبا شادي يعرف للقديم حرمته «ويتأثر بما فيه من روعة، وبما له من جلال، ولكنه من فتنته الأدبية التي استولت على عقله ونفسه، وجرت في عروقه مجرى الدم، لا يكاد يقنع من هذه الصور الشعرية إلّا بالجديد المبتكر، فهو مولع أبداً بهذا الجديد المبتكر، يروِّض نفسه عليه ويطالب به سواه». ولكني كنت أودّ لصديقنا الشاعر أن يبتعد كعادته عن الأساليب العربية العتيقة وأخص بالذكر قصيدته «الناسخ والمنسوخ» - ص ٩٨ - وإن كنت لا أنكر ما فيها من قوة العاطفة الجيّاشة، ولكني أوثر عليها ألف مرة قصيدته «الضاحك الباكي» - ١٠٩ - التي نوّه بها الأستاذ محرم تنويهاً خاصاً. قد يدعو شعّر الحماسة إلى استعمال الألفاظ الضخمة الرنّانة في بعض المواقف، ولكني أؤمن بالسهولة في التعبير وحدها فهي أبلغ رسول من رسل العاطفة.

(٢) لعل صاحب (الشعلة) أكثر شعرائنا المعاصرين افتتاناً بالمرأة، وقد كان له أثر محمود في إنشاء تقاليد جديدة في الموضوعات والتعابير خاصة بها. وافتتانه بالمرأة - كيفما كان لونه - يعني في الواقع احترامه لها، ومع هذا وجدته يسقط من ديوان (الشعلة) غير قليل من شعره الصريح الجميل في المرأة. ولما كان شاعرنا معروفاً بجرأته وشجاعته الأدبية فنحن لن نغفر له هذا الحذف، ونرجو أن نرى ذلك الشعر مثبتاً في ديوانه الآتي (أطياف الربيع)، فحسب الشعر العربي مصاباً تفشي غزل المنكر فيه وما يصحب ذلك من الانحراف والتدنّي في الشعور، ونحن الآن أحوج ما نكون إلى مثل أبي شادي في ذوقه الفطري السليم وصراحته المهذبة ليصحّح بغزلياته الحلوة الممتعة المقاييس الفنية في الشعر العربي الحديث وليوجه الفنّانين إلى المرأة التوجيه الصحيح حتى يقدّر جمالها جسماً وروحاً كما يجب أن يقدّر.

(٣) في ديوان (الشعلة) قصص رائعة وصور ميثولوجية بديعة سيزداد الإعجاب بها كلما تثقفت البيئة، ولكن لماذا يمل صديقنا الشاعر من التمهيد لكل منها بسطور شرحية قليلة حتى يتذوقها ويستمتع بها جميع القراء كما يفعل الأستاذ العقاد نحو الغريب من شعره؟.

(٤) يؤثر الأستاذ محرم الأساليب الشعرية المألوفة على الأساليب الرمزية، وإني أوافق الأستاذ محرم على ذلك ولكن في حدود المناسبات، ومن منّا ينسى الأوبرا البديعة (الآلهة) التي جمعت بين الثقافة العالية والمتعة الفنية؟.

ثم من منّا ينسى الفرائد الرمزية الشائقة في هذا الديوان وفي غيره، مثل «اللهيب المقدس» و«الأطياف» و«اعتراف إبليس» و«تاج الشوك» ونحوها؟.

(٥) مما يؤثر للدكتور أبي شادي اقتراحه ومساعيه لاقتباس فرائد الموسيقى الأجنبية وتطبيق أغانٍ عربية جديدة عليها حباً في تهذيب آذاننا، حتى تُؤَلَف هذه الموسيقى الأجنبيّة الرائعة فتتلقح بها أذواقنا وحتى يؤدي ذلك تدريجياً إلى التطور في الإبداع الموسيقي العربي، وأراه في ديوان (الشعلة) يرمي إلى حدث آخر ولكن في الشعر، إذ لا يزال مصراً على استغلال الأوزان العامية كالزجل ونحوه في خدمة الشعر العربي، آملاً أن يقضي بذلك إلى حد كبير على الشعر العامي. وعندي أن هذا شبه محال ما لم ينظم الزجل والموال العربي بأسلوب سهل جداً. وما لم يتكاتف الشعراء على مؤازرة الدكتور أبي شادي في ذلك، وإلاّ ذهبت هذه الجهود سدىً، ولم تبق لها سوى قيمة تاريخية للمحاولات والنماذج الأولى.

وإن خير ما أختم به هذا التعقيب في هذا الموقف ـ موقف الإكبار لشاعرنا الموهوب وموقف التألم من غفلة بيئته ـ قول أبي شادي نفسه في قصيدته «شتاء الحياء» (ص ٥٥ من ديوان الشعلة).

تَشَجَّعْ أيها القلبُ المعنى ... فقد بات الشتاءُ دُجىً يطول
تحفُّ بك العواصفُ وهي ثكلى ... ويفجعك التناوحُ والعويل
تنوح على الفصول وقد توارت ... بآلاءٍ لها تلك الفصول
كذلك أنت يا قلبي بعصف ... تزول الحادثات ولا يزول
ومَن طُبِع الشجا فيه انطباعاً ... أيغسله الترنُّمُ والهديل؟
وقد غمر الأسى شتّى المجالي ... فغاب البِشْرُ والطبعُ الصقيل
كما هوت الثلوجُ على مُروج ... فكفّنت الحزونةُ والسهول
تشيم بها الحياة ولا حياة ... وتلقى الدرُّ غابتَهُ الوجول
كأنَّ الأرضَ عمَّرها نفاقٌ ... وأفسد نورَها نورٌ دخيل
تشجَّعْ واحتملْ يا قلبُ فرداً ... فليس يدوم للعاني خليل
وليس بمخضعٍ للدهرِ حصناً ... سوى مَن لم يرعْه المستحيلُ!

ـ ٢ ـ

لعل أجلّ غرض بلغه الشعر أثناء أداء رسالته في عصر الحضارة العربية أنه استطاع أن ينتقل بنوع من عبادة الجمال إلى السواد، فكان النشيد يلوح مع الزهر وذكريات ليالي الأنس في كل مكان، كأن رغبة المدنيّة في الوصول إلى هذا المثل الأعلى من تذوق الفن والاستمتاع به كانت الأكليل البديع الذي توّج به تاريخ العرب في الأندلس وبغداد والتاريخ غيور على تقاليده وعناصر مجده فلم يترك للديمقراطية

العصرية أن تأتي بشيء جديد في هذا الصدد، فإنها بمقدار ما أباحت الحرية المطلقة للتذوق في الزيّ ووجوه التظرُّف احتفظت للشعر أن تطيب به كل نفس وأن تصل ثماره إلى تلك القلوب الكبيرة التي علّقت رجاءها في المستقبل على كل رسالة إنسانية مجيدة. ونعتقد أن مصدر الترحيب والاحتفال بالشاعر إنما يرجع إلى أن كل مرحلة في التاريخ منقطعة عن الشعر إنما هي مرحلة غامضة.

هذه عقيدتنا، ولا أثر في هذه العقيدة للريب، وليست تقبل الجدل.

إني كلما تصفّحت ديوان شعر رائع تصورت أني أطل على حديقة منسّقة أو بهو انيق أو كاني اتامّل لوحة لمصوِّر أستاذ...

وهذا ما حدث لي في الحقيقة عندما جعلت أقلّب صفحات الديوان الذي اخرجه للناس الشاعر الرقيق احمد زكي ابو شادي باسم «الشعلة» وفي هذا الاسم شيء من معاني الجد وإشعاع الفن، وهو يرمز إلى تلك الزعامة التي يتولاها رسول يتصف بالمحبة والإخلاص ويختار الشعر والغناء قرآنه.

وإنك لتلحظ أول ما تتلو شعر أبي شادي أن قريحة الشاعر تريد أن تجود بأكثر مما قال، وفي هذا السبق في أشواط الابتكار وإفراغ المعاني الطريفة في صيغ وتراكيب جديدة ذهب بالشعر العصري إلى غايات بعيدة، وعادة الشعر العربي أن يقول تأثراته ولا يتكلّف تصوير الحالة أو المنظر إلّا في النادر، وميزة شعر أبي شادي في هذا الفن بالذوق أنه مصوّر لا يرى أن يكون الجمال في جزء من الصورة بل يجب أن يشيع فيها.

وتلحظ في شعره ذلك التناسب العجيب بين الذوق والنفس

والقريحة، وقد أغناه ذوقه عن أن يدين في عبادته للشعر لشيء من الأمثلة القديمة، فهو من هذه الناحية خالق.

أما النفس الشعري الذي ساوى أبا شادي بعدة من شعراء المولدين فإنه خلاصة ذلك التكوين الثقافي الجليل الذي يتمثل في رجل عصري يعيش بعواطفه، ويرى في كل ظاهرة من ظواهر الحياة ما يلائم تصوره، فهو في الحقيقة من عباد الفن العصريين.

وأنت إذا تمثلت الأمواج الهادئة حين تمتد على الرمال في الأصيل استطعت أن تتمثل قريحة أبي شادي التي تفيض بالشعر وبالمعرفة في أمثلة شتى كلها يرجع إلى نزوع الشاعر إلى «الإيديال».

فهرس المراجع

١ ـ محاضرة أحمد محرم عن «أبو شادي».

٢ ـ ديوان «الشعلة».

٣ ـ أبو شادي في الميزان.

٤ ـ مجلّة الدارة، الفصل الثالث ١٤١٣.

٥ ـ مجلة الشعر، يناير ١٩٩٣.

٦ ـ مجلة إبداع، يناير ١٩٩٣.

٧ ـ مجلة إبداع، فبراير ١٩٩٣.

٨ ـ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، الشيخ محمد فؤاد عبد الباقي.

٩ ـ ديوان عنترة العبسي.

١٠ ـ العمدة لابن رشيق.

١١ ـ معاني القرآن للفراء.

١٢ ـ ديوان النابغة الذبياني.

١٣ ـ عيار الشعر لابن طاباطابا.

١٤ ـ الوساطة للقاضي الجرجاني.

١٥ ـ طبقات الشعراء لابن قتيبة.

١٦ ـ الطراز للعلوي.

١٧ ـ الإيضاح.

١٨ ـ زهر الآداب للحصري.

١٩ ـ إعجاز القرآن للباقلاني.

٢٠ ـ الجمان في تشبيهات القرآن ـ ابن نافتيا البغدادي.

٢١ ـ شعراء الجاهلية والإسلام.
٢٢ ـ ديوان أبي تمام.
٢٣ ـ الكشاف للزمخشري.
٢٤ ـ نقد الشعر ـ ابن قدامة.
٢٥ ـ التبيان للعبكري.
٢٦ ـ الموازنة.
٢٧ ـ الموشح للمرزباني.
٢٨ ـ المقتضب للمبرد.
٢٩ ـ معاني القرآن للأخفش الأوسط.
٣٠ ـ المعلقات السبع.
٣١ ـ الأمالي الشجرية.
٣٢ ـ شرح الشواهد للسيوطي.
٣٣ ـ تشبيهات القرآن.
٣٤ ـ خزانة الأدب للبغدادي.
٣٥ ـ الصناعتين لأبي هلال العسكري.
٣٦ ـ شرح القصائد السبع.
٣٨ ـ البرهان في علوم القرآن.
٣٩ ـ جمهرة أشعار العرب.
٤٠ ـ سر الفصاحة.
٤١ ـ لحن العامة للزبيدي.
٤٢ ـ الشعر والشعراء.
٤٣ ـ المثل السائر لابن الأثير.
٤٤ ـ الكامل للمبرد.
٤٥ ـ شرح الكافية لابن الحاجب.

٤٦ ـ تفسير الطبري .
٤٧ ـ مجاز القرآن لأبي عبيدة .
٤٨ ـ ديوان الحماسة للتبريزي .
٤٩ ـ زهر الآداب للحصري .
٥٠ ـ شرح المعلقات السبع للتبريزي .

تمَّ فهرس المراجع بحمد الله
والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وأصحابه أجمعين

الفهـرس